حدث في الليلة الماضية

لمؤلفه : كاظم جاسم مصطفى

الهاشمي

مجموعة قصص

١٩٥٦

ناظم جاسم مصطفى

حدث في الليلة الماضية

مجموعة قصص

مطبعة المعارف - بغداد
١٩٥٦

المقدمة

بقلم الاستاذ الأديب

عبد السلام ابراهيم ناجى

هذا انتاج بكر ، لا ازعم لك انه بالغ حدّ الكمال ، ولا ادعو لك ان يطيل الله صبرك حتى تكمل الكتاب فأزعم انه لا يقف على رجليه ؟! لا ... لست ازعم لك هذين ولا اقول لك احد هذين الأمرين ولكن حسبي أن اقول لك انه انتاج بكر لقريحة بكر ...

ولست في مجال الوساطة بينك وبين صاحبي ؛ وإنما هي خطرات طاب إليّ ان اسجلها هنا لألقي لك ضوءً على القصة قد يدفع بك الى أن تلتهم صفحاتها التهاماً وقد يدفع بك الى أن تلقيها بحيث لا تقع عليها عيناك ...

على اني لست بآتٍ لك جديداً بحيث لا تراه في القصة وإنما ابيح لنفسي أن ادلك على مواطن لا تخفى عليك ولكنك قد لا تنتبه اليها وأنت في زحمة الحوادث .. وأول هذه الامور هو الطابع الذي يميز هذه . أو قل الطابع الذي يميز صاحبنا في قصصه .. فسترى انه يلتقي مع القصاص المصري محمد عبد الحليم عبد الله في كثير من المواضع . والطابع الذي يميز القصاص المصري ، اعتماده على الناحية (الانشائية) في القصة ؛ تلك الناحية التي قد تفقد القصة عنصراً قوياً من عناصرها وهو عنصر (الحبكة) . ولا تظنن ان في هذا عجباً ؛ فالاهتمام المنصب على (حبكة) الالفاظ يؤدي حتما الى ضعف (حبكة) القصة ... ولكن ضعف الحبكة لا تجده عند صاحبنا وإنما تجد عنده الاهتمام بالناحية

(الوصفية) من الانشاء وأنا لا اشك في انه سيقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه القصاص المصري اذا اغرق في (وصفه) الذي يجره الى ضعف (حبكة) القصة كما اسلفت ... وقد لا يفعل !!!.

إن القصة الحديثة ، بل الادب والفن الحديثين ليعتمدان الاعتماد الاكبر على علم النفس . فكلما فتحت أمام علم النفس ميادين ، فتحت مثلها أمام الأدب والفن ... وهذا ما نلمسه جيداً في أدب الرمزيين والانطباعيين واصحاب مبدأ التداعي ... وهذا الاخير ستراه واضحاً بشدة في قصة صاحبنا الثانية . فسترى - لأول وهلة - ان عنصر تداعي المعاني والافكار يسبغ على القصة شيئاً من التفكك .. ولكن الأمر عكس ذلك ... وأنا معك في ان التداعي قد يؤدي الى الاستطراد الذي يضعف القصة الى حد ، ولكن طبيعة الامور التي تجري في القصة وطبيعة حياة البطل تستلزم ان يكون للقصة هذا الاتجاه نخطها البياني بين صعود الى قمة اللاشعور وبين هبوط الى مستوى الشعور والمعقولية . وقد يتذبذب هذا الخط بين التجربة الرئيسة الاولى وبين التجارب المتعددة للبطل في جوانب أخرى ..

هذا كل ما اردت ان اسوقه اليك ، فاذا وصلت معي الى هذا الحد فتلك الصفحات القادمة تلتقي بها مع صاحبنا ... وهذا حسبي .

الاعظمية : عبد السلام ابراهيم ناجي

الاهداء

إلى أصدقائي الأعزاء الذين طالما انتظروا نتاجي الأول إما ليقرأوه أو لينقدوه ، أقدمه . ولابد لي من كلمة شكر أسجلها للاستاذ الأديب عبدالسلام ابراهيم الذي لولاه لما رأت قصصي النور ، وأقدم كذلك بالغ شكري إلى صديقي الأستاذ طاهر البياتي والأساتذة محمد حسن الصوري وأزهر شريف وعبدالله العبيدي وليس لديّ من شيء أقدمه لهم سوى هذا فليقبلوه مني .

كاظم

جنية أم حنتوش

العباسي

أم حنتوش رئيسة بالتزكية لجمعية الرفق
بالحيوان .. أو أنها ليست كذلك ، هذا
ما ستعلمه بنفسك .

صادف انتقالنا الى دارنا الجديدة بعد فراغي من اختبار الشركة والذي على أساسه تمنح الزمالات الدراسية الى خارج العراق ، وكان لا بد من الانتظار شهراً أو اكثر حتى تصل الموافقات من مركز الشركة هناك ، فساعدني هذا الانتقال في التخلص من القلق المر الذي ينتاب كل طالبٍ في فترة إعداد النتائج ، وجدت في حديقة الدار خير وسيلة لتمضية الوقت وقتل الفراغ في أعمال مسلية نافعة ، استعضت بها عن جلسات المقاهي وقرقرة النراجيل بالانطراح تحت عريشة العنب أستاف عبير الازهار بينما أنساب في شبه إغفاءة وعندما يكون ابهامي منشغلاً بتقليب صفحات كتاب منشور أمامي اكون إما في حضرة منفلوطي أصغي إلى حديثه أو شارداً مع تاييس انتقل من معبد الى آخر أو مع الشيخ همنجواي نهيم في البحر أو باحثاً في لؤلؤة شتاينبيك الفريدة أو في طريق التبغ ... وبعد أن اكتفي اطوي الكتاب واتناول الرفش اقلب الارض وازيل الاحراش عن ورودي الجميلة، اصبحت اكثر شيء اخشاه هو غارات الاغنام عليها اغنام الجيران المسرّحة ، تلطفت معهم ورجوتهم أن يلتفتوا الى اغنامهم السائبة فكان جواب أم حنتوش مثلاً بليغاً ومسكتاً .

— لا تتركوا باب الحديقة مفتوحاً ينتهي كل شيء ؟..

إلا أن أختي الصغيرة ولعبها المنصوبة وراء الباب أذهب كل اتعابنا سدىً . فالناس هنا قد تعودوا ترك حيواناتهم ترعى في الازقة تفتش عن فضلات الاطعمة وقشور الفاكهة ، فتربيتهم زراعة ديم ولكنها تستدر رحمة الناس ...!

وأم حنتوش هذه شخصية فريدة في بابها تتوفر فيها المتناقضات ، صغيرة الجسم دقيقة العنق إلا أن لسانها أسرع من المطرقة الكهربائية

وصوتها أخشن من - حصيد الرحى - سمعت ذات يوم تهاليل وزغاريد وأنا مضطجع في غرفتي فميزت صوتها يلعلع بين تلك الأصوات . يخيل إلي أنها لا تستطيع الكلام بصوت هادئ بودها لو تتخاصم مع كل الناس حتى مع - ثوبها ... ! ورغم كل ذلك فقد تعرفت علينا بسرعة غريبة ...

صارت تدخل علينا ونسرع نحن في إعداد وسادة لها أو فراش ولكنها تصرّ على الجلوس من دون ذلك على الارض فتجلس القرفصاء .. وتشرع تنوح وتبكي على ابنها حنتوش والذي ذهب مع فوجه الى الشمال في اجراء التمارين الحربية .

— تدريب وليست حرب يا أم حنتوش والنساء العربيات كنّ يحرضن أبناءهن على الموت في سوح الشرف . لم تكن تصغي إليّ بل بالعكس كانت تزداد تأوهاً كلما سمعتني أردد كلمة الموت . تتشاغل عني بابنها الصغير الذي تحمله دائماً ، وهذا يبكي فتخرج ثديها وتحشره في فمه حشراً ، ربما كان ثديها اكبر من رأسه وإذا صك أسنانه أو دفعه بيده وظل يلمشح فانها كانت تصفعه فيزداد نشيجه ويظل يبكي حتى تنفذ دموعه . قلت لها :

« خاله يا أم حنتوش ربما يكون ابنك مريضاً » فردت عليّ : « لا . لا .. عيني بربدني أمشي بيه » . ووقفت خلف الباب وصارت تعلق له بالرتاج وتناغيه : « تي تي شو ... شوف البشمه » . شرحت لها كثيراً عن الرمد وعواقبه وكيف أن المشي في الشمس له اكبر الضرر في هذه الحالة وأشرت عليها اتباع جملة نقاط منها غسل العين بالماء الدافئ والصابون وضرورة مراجعة الطبيب فلم تكن تحفل بنصائحي ، وتحاول تغيير الحديث

فتسأل مثلاً : « شلون المحروس بالاستمحان ؟ » فأختصر الجواب « بعد ما طلعت » . فأم حنتوش تتكلم بلهجة ساذجة وأكاد أجزم أنه ليس باستطاعتها الاحتفاظ بسر مهما كان صغيراً ، بسيطة الى حد البلاهة أو كما يقول المثل : « قلبها في راحة يدها » .

لم تكن غارات الاغنام وحدها تتهددني بل كانت هناك غارات العصافير التي هي الأخرى أعنف وأشد خاصة في مثل هذا الفصل ، فصل الربيع ، أو فصل الانتشايات ، يمد القمر انامله الرقيقة ويوزع القطرات قطرات الندى على البراعم والاكام وبعد أن تتربع اللآلئ في الكؤوس يغيب في شبه نشوة حالمة فتتفاوت الالوان ما بين البرتقالي ولون الرماد ينجلي بالبياض ابتداءً من جهة الشرق ، كأن الليل جمرة تخمد تدريجياً وتكون فيه اللحظة الحاسمة حيث الانسجام السحري والسكون العميق على أشدهما ، وترتفع اشرعة الفجر وتهب النسائم ويكون العصفور أول المستيقظين فينقض على البرعم النامي وينقشه فكأنه يجهز على قلبي . ابتكرت طريقة جديدة لطرده . مددت حبلاً طويلاً على عرض الحديقة وعلقت فيه مرايا واجراساً فكنت وأنا في جلستي اسحب الخيط فتدور المرايا وتقرع الأجراس فيخاف العصفور ويطير . وزيادة في المحافظة صنعت تمثالاً كبيراً من الأعواد البسته سروالاً وقميصاً ولففت حول رأسه عمامة كبيرة وامسكته عصا ونصبته في وسط الحديقة حتى السجارة وضعتها في فجوة الفم واستعضت عن النار بصبغة حمراء . فلا يحسبه الناظر إلا فلاحاً يقوم على حراسة زرعه .

علمت بعد ذلك أن تلك الزغاريد و ـ الدف الزنجاري ـ الذي سمعته في بيت أم حنتوش كان بمناسبة ولادة . فقد ولدت إحدى معزهم اثنين .

ثم صرت أراهما خلف أمهما يتواثبان وقد علقت الأجراس في رقبتيهما ، كانا يتزاحمان على الأثداء والأثداء ملفوفة في كيس من القماش .. يتمطيان بالكيس ويلحسانه لحساً فلا يجدان به شيئاً . انهما يتضوران جوعاً إذا مددت لهما يدك فانهما يتهافتان عليها يمصان أصابعك .

عندما تحلب - أم حنتوش - الاغنام يتعاون كل من في الدار معها هـذا يحبس العنزتين الصغيرتين وذاك يشد على ارجل العنزة الكبيرة خشية أن تركل الاناء فيتبدد . . . والعنزة تقاوم وتمانع في حلبها وتدير وجهها يمنة ويسرة كأنها تريد أن تقول هذا قوت اطفالي حرام عليكم ان تسلبوهم اياه . . ابقوا لهم شيئاً . . .

اما العنزتان الصغيرتان فانهما تتقلصان وتتمددان بأيدي سجانيهما . فاذا نجحت احداهما في الهرب فانها تثب والجرس في رقبتها يعلن مجيئها !.. وقد تحظى بشخص أو شخصين قبل أن يدركها العسس .

ثم يتلو ذلك عملية التدرير .

تطلق العنزتان على أمهما وتتلمس - أم حنتوش - الضرع فاذا ماشعرت بنزول الحليب أشارت عليهم أن يأخذوهما عنها ثم تشرع باللط والمط وتـكرر العملية عدة مرات حتى تتأكد - أم حنتوش - من سلب آخر قطرة وحينذاك تطلق الاطفال على أمهاتها ... فلا تجد شيئاً .

سألت أم حنتوش أن تبقي للصغار شيئاً فأجابت على حد تعبيرها « امهاتها تبقى لها » ثم شرعت تتظلم لي من أن الصغار كثيراً ما يفلحن بشق الـكيس فيرضعن أمهاتهن وانتقلت إلى شرح كيف انه يمكن تمييز العنزة الحلابة من الأخرى من شكل الضرع فاذا كان (شامي سفطي) فانه يبشر بخير كثير أما إذا كان متهدلاً مكوراً فانه يكون عادة قليل الـكمية

جيد النوعية . وبعد يوم من هذه المحاضرة القيمة التي شكرتها عليها حدث تطور مفاجيء في علاقتي بأم حنتوش كانت قد أخذت يدي بيدها وصارتني على الاغنام لتقرن البحث النظري بالتجربة العملية ولا اعتراض على ذلك فهي بمقام أمي وقد أثنيت عليها كثيراً في حينها وقلت لها لا شك ان هذه الملاحظات القيمة كنت قد اكتسبتها بنتيجة الخبرة الطويلة في تربية الاغنام !! كانت أختي الصغيرة تحب العنزتين فما أن تأتي من المدرسة حتى تهرع إلى بيت أم حنتوش لتجلبهما على صدرها فألاحظ انخساف البطون والتصاق الجلد بالعظم ، فنتعاون أنا وأختي نسقيها الحليب الزائد من فطورنا بالملعقة ناهيك عن أن هذا الحليب كنا نبتاعه من أم حنتوش نفسها ثم تدفع أم حنتوش الباب وتسحب العنزات الصغيرة من أرجلها تشبك كل أربع أرجل في يد وترفعها فترغي هذه بصوت يشبه البكاء أو أنه البكاء بعينه . أين حكاياك التي كانت تنبعث من قلب طيب ؟ أين رحابة صدرك ؟ . ثم انني أعجب من هذا التصرف الشاذ خاصة بالنسبة لي فلا سلام بيننا كما كان في السابق ثم هذه التلميحات تدل على أنها فقدت الثقة بي ومن وقت قريب ! وأجهدت فكري في تذكر الماضي عسى أن اجد ما يبرره ربما كنت قد لويت اصابعي بطريقة من الطرق أثناء ما كانت تمر بها على ضروع المعز أو . . . وهممت أن أسألها لكني لم اجد الفرصة المناسبة وعندها رجعت إلى أمي أسالها فكان في جوابها ما يزيد الغموض بدلاً من أن يجلوه . لقد قطعت أم حنتوش الحليب مدعية أنه لم يبق لديها ما توزعه وأصرت على رفض ما تبقى لها بذمتنا ، كرم حاتمي يوزع على عتبة باب شيخ البخلاء ، أنا لا أقصد انها كانت امرأة بخيلة ولكنه لو كان

في نيتها ترك اثمان الحليب الذي اخذناه في الشهر السابق لصرحت به من أول يوم فيه كما هو معروف عنها .

وبعد بضعة ايام من ذلك حين رجعت الى البيت اخبرتني أمي أن أم حنتوش تطلب أن أؤدي لها خدمة فاستبشرت وهتفت: إبشري ثم قالت تريد أن تكتب لها بضع آيات قرآنية عينتها لي فوق قطعة من المقوى ، لم تكن أمي بحاجة الى تكرار الطلب فانني قبل أن يحل المساء كنت قد احضرت كل شيء .

- تريد أم حنتوش أن تنفخ على هذا الشعير ثلاث مرات وتقرأ عليه سورة كذا ...

حاضر وقرأت لها السورة ثلاث مرات كما أرادت واخيراً جاءني هذا الطلب :

« أن اغسل يدي ووجهي بماء نظيف فقط ...

- وبعد ، ماذا ؟ تكلمي ..؟ ماذا اقرأ ؟

- لا شيء تريد ماء غسلك .

وضحكت حتى استلقيت على قفاي بينما جاءت أمي بالابريق والمغسلة وسكبت على يدي ثم نادت على أم حنتوش فحضرت بسرعة واخذت الماء . ونهضت وركضت خلفها لأرى ما ستفعله . فرأيتها تقـــدم الماء الى العنزة الشامية .

- ماذا تعملين ؟ انه مليء بالميكروبات .

ومرت ساعة قبل أن ترجع أم حنتوش الينا مسرعةً وهي تحمل قطعة من الجل احترق نصفها وقد امتد وراءها اسان من الدخان فكأنها قاطرة بدون عربات وهتفت من اعماقها :

- انظري صالحه بعينها . فقالت أمي :

- أي صالحه هذه ؟

- صالحه العرجه . هذه عيونها وهذه رجلها حتى عكازتها . واعادتا التجربة من جديد لتتأكدا بأن صهرتا قطعة الرصاص وسكبتاها في كأس من الماء البارد واخذتا تتفحصانها ، عيونها ، ارجلها . ومكثت في مكاني اتفرس بالوجوه علي اصيب كبد الحقيقة وبعد لأي سمعت أم حنتوش تتوجه بالكلام إليّ : « لقد ظلمتك يابني ، كنت اتصور إنك أنت حاسد عنزتي فاذا هي صالحه اللعينة .

- ثقي يا أم حنتوش بالله وبأن الحسد خرافة خاصة إذا كان المحسود حيواناً .

- إصبر إبني ..

وشرحت لي كيف أن اللبن اخذ يغور في الأثداء كما تغور المياه في الرمل ، واقسمت بأغلظ الأيمان أنها لم تظفر بشخب واحد طيلة تلك المدة . قلت لها ربما تكون أمعزك مريضة ، فنفت ذلك بشدة وقالت فيما قالته : « العلف أعلى من رؤوسها » واخيراً اقنعتها بضرورة مراجعة الطبابة البيطرية في البلد .

كان منظرنا في الشارع مضحكاً ، أنا اقود المعزة الكبيرة وهي تهش عليها بعصاها وعشرات الصبية حولنا يبربرون ، وفي المستشفى ضحك الطبيب وقال : لا نعالج حالات كهذه . سألها عدة اسئلة هل أنها تحرك ذيلها عند الحلب ؟ دليل الألم ، وفي طريقكم الى المرعى هل كان هناك كلاب تطاردها أو تؤذيها ؟ لا توجد أية اعراض لمرض التهاب الضرع واضاف بعد ذلك أن لابد من آفة تسلب لبنها .

واثناء رجوعنا رأيت أم حنتوش تغرز نابيها البارزتين في شفتها السفلى لتقول : عرفت السبب . إنّ عليّ نذراً يجب أن أؤديه ، الملائكة تقصد تنبيهي اليه . واشارت عليّ أن اتبعها الى السطح . وعندما صعدنا نظرت خلف الجدار وعندها هتفت :

- صحيح لم أكن أعلم .

- وثقت من كلامي ؟ أنتم اولاد المدارس لا تؤمنون بشيء .

ودمدمت بكلام كثير لم انتبه لأقله ، لأني كنت غارقاً في افكار ملتوية ، كان الانسان جماعياً بطبعه أو بروحه ، فنحن في حياتنا منساقون وراء قلوبنا وما تشتهي وكل ما نسميه بالعواطف ، أما الأموات فليست لهم قلوب لأنها تكون قد تحولت الى احجار ، وأما عظامهم فسوف يأتي اليوم الذي يضطر فيه الانسان الى زراعة المقابر وحينئذ تتكسر العظام تحت عجلات المحراث وتنبت ازهاراً واشجاراً ، لا شيء يبقى منهم سوى ارواحهم الشفافة تطاول الزمن مجتمعة كما كانت اثناء حياتهم ، البراعم أو الضمائر وحدات متقاربة الأولى للأشياء والثانية بين الشيء واللاشيء كلها تنمو وتزدهر بالرعاية الخالصة ، وتضمحل وتختنق اذا ما اصابها برد شديد سواء فرضته الطبيعة عليها أم اختارته الانسانية إليها . ينقض العصفور على البرعم النامي وينتشله فكأنما يجهز على قلبي .. لماذا ؟ ألأني صاحب تلك الأرض ألأجل ذلك فقط ؟ أم هي المحبة الخالصة ، وأنا مدفوع الى مساعدة أم حنتوش أقدم لها الالتماس تلو الالتماس لتبقي شيئاً من لبن الامهات في الضروع لأنه قوت اطفالها ، أي دافع هذا ؟ الذي يكلفني كثيراً من قدري .. اذكر اني في احدى الأمسيات رأيت جواداً كسيراً يقف وسط أحد الجسور على أرجله

الثلاث بينما تعلقت الرابعة من عروة كتفها والدماء تنزف ، لقد القاه صاحبه في نفس المحل الذي كسر فيه كما تترك كعب حذائك البالي إذا ما انخلع ، لم تشفع له اعوامه العديدة التي قضاها في خدمة سيده يحمله ويجر عربته ، وعندما حاولت أن أفعل شيئاً من أجله ضحك المارة علي ، اخرجت منديلاً لاربط جراحه ، أردت سحبه لأحمله على المشي إلى طرف الجسر الآخر فلم استطع ، ياصاحب العربة يا حثالة الانسانية لم يكن بمقدورك ايصاله إلى ارض فيها ماء ، فيها كلأ فلربما يشفى ويخدمك من جديد أو تقوم بأقل ما عليك ، ايهما أشد تأثيراً في ايقاظ الضمائر وفي هداية الناس تلاوة خطبة عصماء عليهم أم في رؤيتهم جانباً من مقبره ؟ لم أكن أعلم ...

- والآن علمت . كل شيء ملائكة وجنون . قالت أم حنتوش .

- لم أقصد هذا . لم أكن اعلم ان المقابر تقع خلف بيوتنا . كنت أخاطب الموتى هذه أول مرة اصعد فيها الى السطح . أما عن الشياطين فلا زلت عند رأيي من أن السماء تخلو منهم لأنهم كانوا قد نزلوا الى الارض منذ أن علموا بأن الباطل ساد البقاع . أما الجن فقد أصبح مقرهم في مستشفى المجاذيب وهي آخذة بالتوسع بحمد الله ! قلت أن الجن تأتي كل ليلة لتسلب وتنبه إلى النذر المزعوم ، سوف انفق ليلتي هنا لأكون في شرف توديعهم ، وقبل أن يتعادل ميزان الوقت في سرة الليل سمعت صوت شفاه تمص ، سمعك الجنى الأول يطلب حصته ، قالت ذلك وهي تشيح بوجهها وتناولت فأسى التي احضرتها خصيصاً بذراع طويل وشفة حادة ، كان الخوف قد تسرب إلى قلبي رشاشاً كما يتسرب ماء البحر إلى السفينة أثناء الموج المتلاطم . وتقدمت جهة الصوت على

رؤوس أصابعي ، وتلاشى الصوت وهتفت ام حنتوش دون ان تلتفت « ارجم ارجوك فانه يمر من امامك دون ان تراه وبامكانه ان يرميك انت وفأسك خلف البيت » ومرت دقائق اخرى قبل ان تستأنف الدفاه الهمس وسكتت ولاحظت شيئاً سمناً ينساب على الارض ، بلون الأرض وبكل عناية صوبت الفأس وغرزت . وبعد لحظات كان هناك شيئاً يتمدد على الارض ، جنية ام حنتوش اما بالنسبة لنا ابنـاء المدارس كما تلقينا به ام حنتوش فانه ضب كبير من النوع الذي يستطيع التقاف ثدي الغنمة ، كنت اسمع بان ثمة انواعاً من الضب تعودت على رضاعة الاغنام ولم اصدق إلا عندما رأيتها بعيني وصفقت أم حنتوش مذهولة وصاحت :

اروك . . اروك جاءك الآخر ثم الثالث !!!...

حدث في الليلة الماضية

العباسي

كان القلم يحترق عندما بدأ بتسطير هذه العبارات ولم ينته منها الا بعد أن تحول الى سطر من رماد

— ١ —

كن ثلاث طالبات من قسم التمريض يجلسن فوق إحدى السرر الخالية رؤوسهن الى أمام حتى كادت تتلامس ، يهمسن في الحديث لئلا يزعجن المرضى ، وكان هناك مريضة ثرثارة تضطجع قريباً منهن ، تود لو تشاركهن الحديث ، اخرجت رجلها من تحت الغطاء وثنتها في زاوية حادة وقامت ببعض الحركات الغريبة لتلفت اليها الأنظار ، ولما لم يحدث شيء من هذا أصغت اليهن . قالت السمراء ذات الشعر المسترسل : ـ

أما أنا فلا أرى في قصصها اكثر من حوادث نادرة الوقوع ، لا تزيد عن كونها طباخة ممتازة للحوادث ، فان الواقع كثيراً ما يلد أشباهاً يعسر حتى على ريشة الخيال أن تصورها . ثم تكلمت الممرضة الثانية ذات الأهداب الشقراء الناعسة : ـ

ـ إذن لماذا تتهافتن الى سماع أحاديثها طالما تجوزن كونها انعكاسات خيال ، أنا نفسي أجد لذة عظيمة في قراءتها .

ـ ونحن كذلك .

ـ واعتقد أنها ستصبح قصاصة ماهرة ، طباخة ذواقة يوماً ما .

ـ رغم أنها ما تزال نكرة .

ـ أقصد في المستقبل ، والمستقبل قريب .

ـ نشاركك هذا الاعتقاد .

وعندها صرَّ الباب الخارجي أشارت عليهن المريضة الثرثارة بأن وضعت سبابتها على شفتيها .

ـ انها المريضة الشهيرة التي تتحدثن عنها ، قادمة ». تشاغلت كل واحدة

منهن بشيء هذه تفرغ جيبها وتعيده والأخرى تقلب في كتاب ولما وصلت هتفن لها : -

- سميرة حديث الليلة الماضية .. كيف ؟

- لحظة لتصدقن كلامي .

ثم خرجت ، وما إن ارتد الباب الزجاجي خلفها حتى اندلعت ثلاث جرار مرة واحدة من الضحك .. ثم تتبعها الرابعة . وإذا بالثرثارة تقفز : - سوف أحدثكن عن مقابلتها مع أقربائه ، وما قالته عنه

- تحدثيننا أنت !

أجبن بسخرية .

— ٢ —

كان يتكلم وكأنه يرى راحة في الكلام يحاول أن يبتسم لولا أن ساقيتين أو ثلاث كانت ترتسم في كل مرة على جبينه تفضح ما يكنه من حزن عميق، بشرته سمراء رصاصية، أليس كذلك ؟ سألت الممرضة الشهيرة

- أجل فان سياط الشمس كانت قد لوعته خمسة أيام متوالية ، أجابت قريبته .

- وعلى جبهته حفرة صغيرة تشبه النجمة بعض الشبه ؟

- هذا صحيح انها رفسة حصان .

- تقرأين في ورقة . صرخن بها ووثبت إحداهن اليها واختطفتها وقرأت :

جيء به في ساعة متأخرة من ليلة أول أمس وبعد أن فحصه الطبيب قال : « إما أن يموت بعد ساعتين أو يؤجل الى عشرين عاماً أخرى » . وحينئذ فتح عينيه وتفرطت هذه الكلمات على شفتيه :

- دكتور أعتقد أن واحدة فيها زائدة .

وأمر الطبيب أن ينقل إلى غرفة الحالات الخطرة . وأشار عليّ أن أقوم برعايته ...

وقبل أن يدلو الليل دلوه فجراً مباركاً رأيته يحاول الجلوس ولما منعته قال : إن لديه سراً في صدره « أعني كنزاً في جيبي » ، هاتني واحداً من الأقراص .

- أقراص .. أقراص خبز !

- لا تهزئ وأجهش يبكي .

وفتشت في جيبه ، في حاجاته التي كنا نحتفظ بها له في خزانته فوجدت علبة بنزدرين[1] وعلبة أخرى لنوع آخر من الحبوب ومجموعة أوراق ممزقة ، وفتح عينيه مرة أخرى فرآني أنظر اليه قال :

- لا بأس ، لو تعطيني قلماً لأضيف عبارة الطبيب ليكون كاملاً .

ووعدته بأني سوف أسجلها له ، وأقدم له وأضيف بعض الآراء ، أتسمح لي بذلك ؟

- هو ملكك ..

وتوقفت الممرضة عن القراءة وقالت للمريضة الثرثارة :

- يا خبيثة انها ورقتها !... بدأتِ تسرقين ! وأبدت الصغرى فيهن دهشتها من أن في المرضى من يعرف القراءة والكتابة . وعندما أقبلت الممرضة الشهيرة أعطينها الورقة وتهيأن للاستماع .

وبعد أن التأم شملهن على السرير ترحمن له وكان ذلك إيذاناً بأن القصة قد بدأت . انها مذكراته ... خط يده قالت .

---

(١) البنزدرين : نوع من الحبوب المنبهة ، تطرد النعاس .

— ٣ —

اشعلت السجارة السادسة قبل أن انزل إلى الزورق ، كان قد جابت المنطقة زوارق كثيرة قبلي بيد أنهم لم يعثروا على الجثة ، كانت معي كمية كافية من السجائر وهذا أهم شيء يغدو في تلك الظروف . أما الطعام وأما السلاح فلي منه ما قسم الله .

ونفث دخان سجارتي بعنف أعني (في) لأن في ويدي مستقلان عن عقلي في هذه الأيام . كنت أتلهى اجذب الدخان بقوة فأنفخه على هيئة كرات متعاقبة ويتحرك القطار قطار الدخان الما كنة مكونة من نفخة كبيرة تجر وراءها عربات من مختلف الأصناف وعندما ينتشر الدخان يكون القطار داخل النفق .

لم تبق لي غير هذه الوسيلة اعزم بها جيوش الخوف القاتل واسترجع المواقع الحصينة التي احتلت من عقلي ، فالخيال بمثابة مطرقة تدق بها رقبة اليأس المحنك . هو آخر سلاح نلجأ اليه .

التعبير عن الحزن في عهد الطفولة يكون سيحاً من الدموع وفي عهد الشباب حركة ودأب متواصل ، أما فيما بعد فانه صمت متواصل ممتد وممتد كماء البحر الساكن حتى يتصل بسكون اللانهاية .

ـ أخشى أن اثقل عليكن

ـ أبداً يلذ لي حديث الأوتار المتقطعة

ـ وأنا كذلك . اجابت الممرضة الشهيرة فانه كان ينظر على يدي وأنا أعد (الابرة) فأقول له : « إنها قذرة لا تنظر اليها .. بل أنظر .. انظر في عينيّ ، هاتين النافذتين الصغيرتين ، ألا ترى خلفهما شيئاً ..؟ اصنامي المحطمة ، آمالي التي كنت أراها من بين حدائق غناء ذهباً

وفضة فاذا بها جبال جرداء .. ألم وملل .. انظر في الشباك ألا ترى المأذنة ، انها تهتز فيتساقط الريش ...

- إنه يؤلمني .

— ٤ —

ثم قرأت :

كأني لم أقم من جلستي طوال تلك الرحلة كل شيء على حاله ، فارق بسيط هو هذا الزورق الذي امتلكه إذا لم يصح اعتبار المهد هو الآخر زورقاً يمخر بنا عباب الطفولة . أمامي على الضفة الأخرى صف طويل من النخل الباسق يضحك للناظر رغم ضعفه . ومياه دجله بلون اظفري ترتطم بالساحل فينحدر جدار من الرمل في كل مرة ، انها فلذة كبد الزمن تتقطع ، واجيل عيني بما حولي فلا اجد غير اسراب الزاغ تحوم حول جثة حيوان ميت طافٍ وفي الزاوية عند الطرف البعيد كانت تقبع اطـــلال قصور عتيقة تتوهج بنور الشمس والشمس ذلك الحوذي العملاق يقرع جياده ، في كل مكان فتعدو الجياد (أعني الناس) صاخبة وراءها مركبة الزمن ورغم كل ذلك فان بضع غيمات اخف من قشر البصل انتشرت كالوشم في وجه السماء .

كل ذلك لم يقلل من قلقي ولم يشعرني ولو بمثقال سعادة عندما كنت في الزورق وعندما كنت في زورق الحيـــــاة ... أجل فاني لم أذق طعم السعادة طيلة حياتي ، ولو انه كانت قد مرت بعض اوقات قصيرة لاتستحق أن تدمع لها عين . كانت كشرارات النار ما ان تتعقبها حتى تنطفي .

- ما اروعك .. خاطبته .. فقال .

- انه يؤلمني .

اقرأي اقرآيه مع التعليق هتفن بها : -

كان أبي يأمر نقطة من نقاط الحراسة على الحدود ، تحت امرته فصيل كامل من المسلحين بالاضافة إلى عمال التلغراف ومراسلين وخدم . كانت لي على اقراني من ابناء الجنود نفس السلطة التي لأبي على أفراده . أتميز عنهم بالملبس والحلوى يمكنني ان اريك صورة رائعة لتلك الأيام الحلوة ، بدلة بيضاء مصنوعة من قطعه واحدة من الصوف الخالص وثغر باسم ويد مملوءة باللعب ، نلعب فوق قمم التلال المحيط بنا ، نعد واحد... اثنين ثم نتراشق بالثلج ، لقد كنت في القمة ثم هويت الى الحضيض لم يصب جسمي بأذى إنما الذي تحطم وتكسر هو حظي الذي اصبح كسيحاً يعجز عن أن يسبق سلحفاة .

عندما بلغت سن المدارس تكلف احد الافراد بنقلي من المدرسة واليها على حصان اشهب كانت مدرستي واقعة في احدى القرى المجاورة على مسافة ثلاثة كيلو مترات أو اربعة .

ما ان نخرج من النقطة ونبتعد قليلاً حتى احس بشاربيــه يدغدغاني وشفاهه الغليظة تمس أذني وأنا جالس أمامه على الفرس ثم يضع فـه على خدي ويقبلني ، إنها لا تشبه قبلات أمي وأبي لأن فيها حرارة عاليـة ويدغدغني في عنقي فأتململ وأتلوى وعندها يضمني إلى صدره بينما يلكز الفرس ويرخي اللجام فتطير مع الريح . انكب على يده أنهشها بأسناني ولكن دون جدوى لأنها تكون كالصخرة الصلدة ولا أجد مخلصاً غير البكاء وتجاه ذلك هل يرخي الفرس أبداً . أبداً بل يلكزها اكثر ، اكثر ، اكثر وهو يقول :

- لازم تبوس ايدي أول .

واضطر معها ، نعم اضطر الى ان اقبل يده ، قبلة من الفم بريد وأخرى.. حتى تعودت عليها واصبحت أجد فيها متعة بعدما كنت اضيق بها أشد الضيق . فأنه ما كنا نبلغ القرية ونمر بدكا كينها حتى ينزل (عمو رحيم) كما كنت أسميه ويخيرني في أنواع الحلوى واشكال اللعب ديكة من سكر لها صفاره في ذيلها كرات ملونة . وعند رجوعنا لا أراه يقترب إليّ فضلاً عن أنه كان يقص عليّ قصصاً مضحكة عن (الفريخ الأكرع) و (الخنفسانه المخططانه) (اجه الصفار قال لها تتزوجيني فقالت أنا قشر البصل ما أحلوا . ويسألني عما تعلمته في المدرسة فاقرأ له !

غنمي غنمي ما أجملها   في موقفها تحت الشجره
سيري سيري نحو المرعى   واجرى بين الارض الخضره

وأشير بيدي وهنا لايملك إلا ان يقبلني ونكون عندها قد أوشكنا على الخضر ، وربما رأته أمي وابتسمت وتهتف أختي (هاي جويّ) اذ يكونان في انتظارنا واسرع إلى اختي أقبلها بعنف ، بدافع ماذا ؟ لكي استعيد سيطرتي ؟ عجيب إذا كانت هذه المحاكمات كانت قد دارت في رأس يافع بسني .

أخبرت أمي عن رحيم فقالت أنه يحبك ويمزح معك ... انه رجل طيب . لم ادرك ما كان ينطوي عليه مديحها له من معنى ، وشيء آخر موه عليّ الحقيقة ، أهل القرية الذين كان يتبادل معهم أنواع الكلام البذيء ثم يظهر بعد ذلك انه كان كله مزاحاً في مزاح بدليل أن بعدها دائماً (استريح) ويقدم لنا الشاي والسجائر .

انى اكره كل هؤلاء اما امي أماً رحيم فأنى ارى اخطبوط الموت يتمدد على حاجبيها .

ويوم الجمعة لا نكون في طريقنا إلى المدرسة لأنه يوم عطلة فتصنح لي الفرصة لكي أنقل ما تعلمته الى اقراني من شتائم ومزاح ، أدفع هذا ، واقرص ذاك ثم صارت منزحتنا المحببة ، صرنا نختلق الحجج لننقطع عن مدارسنا نكذب ونحتال أما شبكتنا الحمراء وكرتنا (أم جلدين) ، أما مضارب الهوكي التي صنعناها من جريد النخل فقد سئمناها جميعاً ، ولم نعد نميل إلى التراشق بالثلج ، ذهبنا ذات يوم ندعو راضي ابن العريف جاسم إلى اللعب معنا ، وقفنا خلف الدار ووضعنا أصابعنا في أفواهنا ونفخنا فكان محصلة صفيرنا أعلى من صافرة القطار وما هي إلا دقائق حتى خرج العريف المحترم . . ! وشرع يسبنا سب الذين كفروا ، ان ابنى لا يرغب بلعبكم . كان راضي طفلاً جميلاً ذا شعر اشقر خفيف ، له وشمة لطيفة في حنكه يرتدي بنطلوناً أسود وينتعل حذاء أبيض ، خرج راضي الينا بعد ساعة وهو يمشي على اطراف أصابعه ، قال :- نام أبي واوصى أمي ان تغلق الباب ، لم تغلق الباب ، لم تغلقها طبعاً . أجمعنا سوية ، كنا نريد الذهاب الى تل (الأحيمر) ادعى صابر انه وصل الى هناك ورأى اعشاشاً . كثيرة فيها بيض وقنابر . ذهبنا بالفعل ، تسلحنا با (المصيادات) والعصي . كانت هناك صخرة حمراء كبيرة تقف في وسط المجرى كأنها شرطي مرور ، خلعنا ملابسنا وسبحنا بماء العين رغم برودته الشديدة واصطدنا اكثر من عشرين عصفوراً .

رجعنا إلى بيوتنا قبل أن ينسحب من على رؤوس الشجر آخر خيط لأشعة الشمس وبمجرد وصولي اسرعت الى المنضدة فان أبي كان قد خصص لي غرفة وضع فيها سريري ومحفظة للكتب ، افترشت الأوراق ، كنت منهمكاً في رسم خريطة وادي الرافدين ، حينما دخل أبي وبادر يسأل

أمي : - هل خرج عارف معهم ؟

- أبداً أبداً ، إنه لم يخرج من الظهر إلى الآن يد فيها الكتاب والأخرى فيها القلم .

صرت اتأفف واتضجر متظاهراً بالتعب إلى أن سمعت نداء أمي تدعوني : -

هلم يا عزيزي لتأكل ، وما إن جلسنا نتعشى أنا وأبي حتى سمعنا صراخاً مفجعاً ، قفز أبي إلى الطريق أما أنا فلم تكن لي حاجة في الخروج لأني قد عرفت الصوت ، دارت الدنيا في عيني ، شعرت بالنـــدم . إن من يذكرني بتلك الأيام الجميلة كمن يخزني في موضع من رأسي يؤلمني . وهتف : اريد قرصين ... قرصاً واحداً من البنزدرين ، غير أبي لم استجب طبعاً .

أتلاحظين العبارة الأخيرة اضافتها الممرضة .

أجل ... قالت الأخرى .

— ٥ —

وأنا في جلستي تلك على حافة الزورق كنت اتقصى الحقائق ، اقوم بعمليتين اتذكر في الماضي واعيش في ماضيه . حللت حبـــل الزورق ودفعته وأنا اقفز فيه ، ولما جرى في وسط النهر ولما انساب مع الماء كنت منساباً مع الذكريات .

كنت إلى العام الماضي (العام الذي يسبق عام الحديث) من المتفوقين في المدرسة . لم اكن الأول إنما من المتفوقين . وأمام باب الصف اذكر كيف كنا نقف في صف طويل ينتظر كل منا دوره في الامتحان السنوي في موضوع الأشياء ، كأن منصهر الرصاص يجري في شراييني ويكون دوري فيسألني المعلم : كيف يصنع الصابون ؟ فأشرح له دوران الخليط

من شحم البطن وصودا الغسيل في قدور ساخنة ، واشير بكفي ... ثم يضاف الملح ملح الطعام فيطفو الصابون منفصلاً عن الخليط وبعد أن تجف العجينة تقطع الى قوالب وتعرض في الأسواق ، أما السؤال الآخر فقد مرره على كل الذين سبقوني فلم يستطع أحد منهم أن يدلي بالجواب الصحيح ، ما هو الخفاش ؟ الخفاش حيوان لبون يلد اطفاله ويرضعهم يمتلك جهاز (رادار) يبصر به طريقه ... مرحى .. مرحى ، ويمنحني عشرة من عشرة ، لم تكن هذه مكافأتي فحسب ، إنها عند أبي يصافحني مصافحة الرجال ويقدم تهانيه على شكل ربطة عنق جميلة أو آلة تصوير .

اظنك ادركت قيمة ذكرياتي ، ومقدار جزعي وأنا اسمع صراخ راضي . كان يتلوى تحت سوط أبيه ، ورغم ان اكثر افراد المحلة كانوا مجتمعين غير أن واحداً منهم لم يكلف نفسه ويخلصه من أبيه ، كانوا يهمسون « بالجهنم .. بالجهنم » .

وذهب أبي إلى المخفر بعد العشاء ثم رجع مسرعاً والشرر يتطاير من عينيه وقال بلهجة جدّية : أم عارف أنت طالق ... طردتك من بيتي ، تكذبين عليّ ، عارف يا املي الضاع لقد غششتني أنت وأمك ، وظل طول الليل يئن ويضجر لكنه لم يمسنا بسوء .

وعلى هذه الصورة اختتم فصل آخر من حياتي ، ان كل اولئك الذين عشت معهم . كانوا كالجراد اعتاشوا على عودي .. واقراني الذين كنت احتقرهم آنذاك باعتباري ابن رئيسهم اصبحت أولى منهم بالاحتقار .

انتهت الآية .. وانقطعت مسبحة الذكريات لتنتظم من جديد وبكيفية أخرى فأبعد ذكر (عمو رحيم) عن مجال تفكيري ، رفعت

صورة أبي من على منضدتي بينما ظهر حول صورة أمي في الزاوية شريط ملون .

وبمجرد أن توقفت عن القراءة عند هذا الحد اعلنت الطويلة منهن سخريتها بضحكة ثعلبية فامتعضت الأخرى .

– أما أنا فلا ازال اعيش معه في زورقه .

– ليس في حديثه ما يبعث على الضحك ، إنه مؤلم .

– ضحك ممزوج بالمرارة ، بخور في الهزيمة .

وقطعت الممرضة الشهيرة نقاشهن بأن قالت : في الناس من يذرف الدموع لمجرد ان يرى مشهداً دراماتيكياً على المسرح أو على الستار الفضي وآخرون من الناس يودون لو يذبحون اخوانهم بمنشار صدي . ونهضت وادارت ظهرها والقت هذه الكلمات قبل أن تخرج : « سوف اتركه لكن لتقرأنه وتحكمن عليه بمفردكن » . أما المريضة الثرثارة فقد ظلت تتربص طول الوقت ولما رأت الممرضة الشهيرة متجهة نحو الباب قالت : « إنه لم يمت ، لم نسمع بموت مريض في جميع الزدهات لا البارحة ولا اليوم وكررت ذلك بصوت غليظ عندما ارتدت الباب .

— ٦ —

وعندما نام اسرعت في القراءة . –

– عندما بلغ بي الزورق نهاية المنعطف انحدر مسرعاً يشخر في جريانه كما يشخر النائم ولكي اطمئن على سلامته تلمست صدره العالي كان مائلاً كالسيف مغروساً في صدر الخضم ، وأما خلفه فثمة سطران من الموج شفاه الزمن الغليظة تتولد وتتلاشى باستمرار . وصار باستطاعتي رؤية الغابة المخيفة ، أنها تمتد اعتباراً من ذلك البروز من الأرض وتمتد إلى المستنقع

أي ما يقرب من خمسة كيلو مترات عرضاً وعشرين كيلو متراً طولاً . سمعت عن خنازيرها المستأسدة الشيء الكثير . وفيها اضخم الافاعي ، واشكال الطيور ، مبالغات كثيرة عن الطير المسمى (نعيج الماء) وزنه أكثر من طنين ، وريشته أطول من الصفة ، وبيضته اكبر من البرتقالة ، ويملك جناحين كبيرين يستطيع بهما اغراق زورق من النوع الكبير ورغم ذلك فله القدرة على الغوص والسباحة مثلما هو قادر على الطيران .

وجذبت آخر نفس في سيجارتي قبل ان القيها ، كانت الشمس ماتزال قوية اشرعتها تدفع بسفينة السكون نحو ساحل مظلم... اما عدتي فليست سوى رمح مصبع (فالة) وخنجر صغير مفضض وقطعتي حبل ثم مصباح يدوي ، بالاضافة إلى القلم والاوراق وعلب الحبوب والسجائر ، كنت قد لاحظت شيئاً مدوراً يعوم فوق الماء يتجه نحوي أم لا ...؟ القيت القلم ونهضت هيأت « فالتي » انني في حالة أشبه بالرجل الآلي ، كل جزء منه مستقل عن الآخر مع انه مع الأجزاء الأخرى تشكل وحدة كاملة ، عيني تراقب الماء ويدي تحرك المجذاف وقلبي يلتمس السلوان عن طريق نبش الماضي ، بقيت واقفاً اكثر من نصف ساعة ، ولما ابتعدت عن المنطقة جلست إلى قلمي اناجيه « سوف تتخاصم مع حبيبتك فتقول لها ياورقتي ياذات الوجه الناصع ، دعيني اطرزه بقبلاتي وتقول لك ما تقوله زوجة أبي الثانية لابي . سأضع خطاً تحت هذه العبارة لأنها مهمة .

« لدي شعور المستكشف في الاصقاع القطبية يريد أن يكتب وأن يخلف أثراً ولو كان قصة موته .

وسأتبع قاعدة « فرق تسد » بين حاضري وماضيه لم يكن الرأس المدور الذي تراءى لي رأس انسان . رغم أني صرت ارتجف من

بمجرد تصور جثة تعوم فوق سطح الماء وانتشلتها وحدي ! بيدي هاتين وفي هذا الصمت المطبق ! محال . شيء واحد يقلل من تبرمي كونها جثة امرأة عزيزة علي ، ففي الحالات الطبيعية يرتاح الانسان كثيراً إذا رأى امرأة عارية تستحم مثلاً ... وانا كنت اظل في حالة طبيعية لولا أن شجاعتي قد نفذت كما ينفذ « بنزين السيارة » .

لقد نفذ أبي وعده الذي قطعه على نفسه في المساء فطردني أنا وامي الى بيت جدي « من أمي » والغريب في الأمر ان أمي وافقته بسرعة ، وعندها بدأت الافكار تتولد في رأسي كما تتولد الفقاعات في قدر ساخن ماؤه ، وأزت الاسئلة أزيزاً ، أكان خروجي مع الصبية هو الباعث الأول والأخير لتلك النتيجة أم ان اسباباً أخرى تترسب في مجلول الكلام .

ومر على انتقالنا الى بيت جدي اكثر من اربع سنين قامت أمي خلالها بحركة ناجحة ، فتحت كيس نقودها . وهي نقود كانت قد جمعتها اذ كانت مع ابي بطريقة تفشل كل طرق الحساب في إيجادها واشترت قطعة ارض بثمن زهيد وفتح شارع فصار المتر بعشرين وتوالت الصفقات تشتري بمئة وتبيع بمئتين حتى صارت هي صاحبة الأمر والنهي .

اما من جهتي فاني كنت غريقاً إلى منخري في الامتحان وكل امتحان يهون إلا امتحان (البكالوريا) فالبكالوريا شيء عظيم في مخيلة الطالب ، لقد قرأت عن هجرة الاسماك وكيف ترتطم بالسد العالي . فالبكالوريا سد هائل في طريق سمكة . اثب في الفراش واتناول الكتاب من حقيبة (خوص) ملقية جنبي واقرأ وتلتصق اجفاني بقذاها . فأذهب الى الماء وبعد أن اغتسل اجلس امام المنضدة قبالة الشباك ويمتد جلوسي إلى ما بعد طلوع

الشمس ويبات فوري الشاي ساهراً معي والدجاج ينزل من فوق النخل متوهماً أن النهار قد طلع ويطوف حولي ليلتقط الجراد المتساقط . حتى النعجة التي اشترتها جدتي لتعق لروحها ، حتى هذه تصلني بعد أن تثني ركبتها وتطيل عنقها . لقد تعودت جدتي ربطها في قضبان الشباك وتمد لها من الحبل ما تيسر من الطول .

كنت مضطراً إلى سهر الليـــالي لأني ابتدأت بالدراسة في وقت متأخر ، والامتحانات مقبل عليّ كخيل السباق . من قال إن الشاي يبعد النعاس وان القهوة منبه جيد لقد استعملتها واستعملت الكاكاو .. فلم اجد ما يجعلني اسهر حتى الساعة الواحدة صباحاً . واخيراً وجدت (البنزدرين) ارشدني اليها احد زملائي قرص واحد يعادل عشرة فناجين القهوة ... ثم ادمنت عليها .

أنا لا انكر ان تلك المطالعة اضرت اكثر مما نفعت اكثر بكثير ، كان بصري ينتقل من اسفل الى اعلى مرة في الكتاب ومرة على السطح حتى لقد اصبحت خبيراً بطقطقات الاحذية على السلم ، ثق بانى كلما سمعت صعوداً عليه كنت اشعر بكياني يهتز ، ثم تتخطى (ميهن)[1] على السطح أو تمسك بسعفة النخلة المنبثقة من وسط السقف كأنها عفريت ، وتتأرجح فأرى كعبها المحنى ، وسيقانها الصافية ، وتضحك وتضحك معها النخلة بعلى حدقيها . أو اشداقها ، لأن كل سعفة تقوم مقام شدق . فيسقط الكتاب في حجري ، ثم تنزل (ميهن) واثناء نزولها يتسمر بصري على صدرها حيث التوتر على اشده ، حيث الاهتزازة تسري بين تلين ، بين نهرين ... يالسخفي ... اني افسدت المعنى ، كأنى اشرح قياس سرعة الصوت او قياس سرعة الخفقان ، كانا تلين من ورد ، واصداف

---

(١) ميهن معناها (وطن بالفارسية .

قلادتها كل واحدة هي محارة صغيرة ملتفة... واغيب في عالم الخيال . ألم اقل ان تلك الدراسة كانت تعب زائد ، واحس بأنامل جدتي « الحرشفية » تمر على شعري ، أو تربط في زندي حرزاً مثلث الشكل ، فيلذ لي مداعبتها :

- جدتي بودي لو انسف هذا الحائط ، حائط الجيران .

- اسود حظك ...؟ سور الله ...؟

كأن أذنها من رصاص ليس لها صيوان ، تلتقط من كل كلمة حرفاً واحداً . وتشرح لي ما معناه .

- آه لو استطيع أن اجد لك عوداً ... لينجحوك بدون امتحان .

- ينجحوني بدون امتحان ؟

- فقط هذا . انه يعمي ابصار الظالمين عنك ، يلقي على عيونهم غشاوة ، يرقق قلوبهم .

- وله تأثير على الفتيات مثلا .

- أيوجد اكثر من ان تضع المرأة قلبها على منديل أبيض وتقدمه هدية لحبيبها !

- أنت تبالغين كثيراً .

- ماذا تقول ؟ تلغين ؟

- أبداً ، قلت ما اسمه اسأل عن العود ، عرق السويحلي

- تكلم بصوت عالٍ ، إسمه ... إسمه « عرق السويحلي » لا يزيد طوله على العقدة ... باهض الثمن ، بعيد الوصول ، يحتاج الى سهر وصبر ، ثم انه لا يصلح لكل انسان ...

— ٧ —

قلت وأنا ادخل البيت : « وأخيراً نجحنا سواءً بقوة أحراز جدتي أم بقوة ذكائي » . قلت ذلك بصوت عالٍ لأسمعهم ، وجاءت أختي واخذت مني وثيقة درجاتي وبدأت تقرأ :

- كلها في الخمسين !

- لا بأس طالما نجحنا .

- المجموع أظن فيه خطأً

- اسكتي ، كتّاب ومحاسبون

- خذ اجمعها أنت

واختطفت الورقة من يدها وتظاهرت بالجمع وقلت كم ؟ وعدد الدروس كم ؟ وجمعت وقسمت ، وهنا التبس عليَّ الأمر ، أأستمر في حيلتي أم اتراجع قليلاً ، واظهرت الانزعاج ، بأن التفت اليها من طلب منك يا خبيثة أن تجمعي ؟ « ماذا أفعل ؟ أأخبر مدير المدرسة فأتورط في الامتحان من جديد ! أم أسكت ويفوت الأوان ، ويشعر بالخطأ مدير أو معاون وأعد راسباً في صفي . قلت ذلك وأنا انتقل من غرفة الى أخرى .

كلما فعلته كان تمثيلاً ، ابتكرت هذه (الخطة) لكي اتخلص من غضب أمي فأنا أعلم من أول الأمر أني راسب في خمسة دروس ، وقد حككتها بالشفرة بكل عنايـــة وحولت العشرين خمسيناً ، ولم انتبه الى المجموع جيداً ، فقد حولته حسب استطاعتي ، من مائتين وتسع وثلاثين الى اربعمائة وتسع وثلاثين وأنا ما كنت استطيع منع هـــذه الخبيثة

(أختي) من الاستمرار في الجم ، ومها يكن فان (الاكمال) خير من الرسوب عند أمي وعند كل الناس .

في المساء كان لقائي مع ميهن قصيراً جداً عند أبط الشارع في المحل الذي يتصل به زقاقنا . كانت ذاهبة الى السوق ، ورغم اننا لم نتوقف غير دقيقة واحدة قطفنا فيها قبلة خاطفة ، فان (أم قر) كانت قد رأتنا وسلمت علينا - بكل وقاحة - انعلمنا بأنها قد رأتنا .

وعندما اصبح الصباح كان كل شيء قد انتهى ، فان خبرنا كان قد زرع على ألسنة الناس واستطال الى اشجار باسقة . أم قر هي أم طائرة هيكلوبتر تنفث سمومها ، لست أدري !...

كانت الأيام التالية مجدبة على كلينا فان أهل ميهن بدأوا يضيقون على فتاتهم الخناق ، حرموا عليها حتى الوصول الى العتبة .

إدعيت لأمي اني ذهبت الى المدرسة وقد هوّن المدير عليّ الأمر واشار عليّ أن اختار موضوع الاجتماعيات وأن نجاحي سيكون فيه مضموناً سيما واني لا احتاج إلا اربع درجات لأجل المجموع ، وبالنسبة لميهن فأني وجدت طريقة للاتصال بها ، فكان لي اجتماع في الحب واجتماع في الدرس ، أعجبني هـذا التوافق اللفظي ، وأراحني بعض الوقت ، صرت اتسلق حائطهم الخلفي الى الشباك وتصعد هي فوق دولاب الملابس ومن خلال القضبان نمد أيدينا ونتصافح ، بينما تكون يدي الأخرى ممسكة على الشباك ، وأضغط على يدها بشدة ثم أبدلها الواحدة بالأخرى ، ونحاول أن نتعانق لكن الحديد يصفعنا .

كانت تكرر عليّ هذه العبارة « لم أعد احتمل ، وسوف اهرب إذا أنت لم تفعل شيئاً من أجلي » واقول لها « يا عزيزتي أنسيت أمي

ومعارضتها في زواجنا ؟... من أين لنا المال اللازم ؟ تذرعي بالصبر ... لندع مشكلنا يحل نفسه بنفسه ، نتركه للظروف ، للأقدار . تقوم بحله . كانت حججها أقوى من حججي بكثير ، كانت تقول لي ما معناه : -

- أيها يكون اقصر - بين نقطتين ، خط مستقيم أم خط منكسر ، منك الى عمي عن طريق أمك خط منكسر ، وبدون أن يمر بها خط مستقيم أليس كذلك ...؟

-٨-

وفي صبيحة إحدى الجمع بينما كنت منطرحاً على سريري ، اقرأ في مجلة ، نادتني أمي ولما خرجت كانت أمامي مفاجأة كبرى فقد وجدت الشخص الملقب - عمو رحيم - كان جالساً في وسط الدار على كرسي ، وقالت أمي : « هذا خالك » ، خذ يده ، ورأيته يتقدم نحوي وينحني عليّ ليقبلني ، فتراجعت الى الوراء واكتفيت « بالمصافحة » ، قال لها : - لماذا لا تقولي « عمك » كما كان يلقبني في السابق ، أظنك نسيتني ياعارف « ابداً فاني لن انساك ... » ، علمت انه كان قد تخلى عن وظيفته منذ زمن بعيد ، وانه يشتغل الآن قصاباً في محل كذا ... وحانت منه التفاتة الى السطح فرأى ميهن تتخطى فسأل أمي : من تكون هذه ؟ واسهبت له أمي في الشرح ، عنها وعن أمها حتى علاقتي بها لم تتورع من ذكرها ، فقال : إنه يعرف عمها منذ زمن ... والتفت إليّ ، وصار يذكرني بأيام المدرسة ، عندما كان يحملني على حصانه فكأن كلماته كانت عقارب تلسعني .

واستطال حبي عامين آخرين ولكن كما يستطيل قضيب الحديد تحت

مطرقة الحداد على حساب سمكه . وبعدها افرغ أهل ميهن الدار وانتقلوا الى دار أخرى ، ثم تلاشوا بعد ذلك كما تتلاشى فقاعة الصابون ، ومهما حاولت العثور عليهم لم اجدهم .

— ٩ —

كان قد انحنى قوس النهار واوغل في الانحناء ولما سقط قرص الشمس خلف جرف الأفق المصفر فكأنها ساحة معركة واختفت الحمرة تدريجياً ولم يبق منها إلا لطخة صغيرة ظلت معلقة في حاشية الأناء الكبير لمدة أخرى .

وانتبهت إلى نفسي ، كأني ذاهب في نزهة ، وليس ابحث من جثة ، جثة والدتي التي لم استطع أن اذرف من اجلها دمعة واحدة ، فاني عندما رجعت البارحة من سفرتي وجدت أنها كانت قد برّت بوعدها الذي قطعته : - إذا أنا لم ارجع عن عزمي ، سوف تذهب الى النهر وتغرق نفسها ، وقد فعلت ... لم اكن اعلم أنها كانت جادة في ما تقول الى هذا الحد . وأجلت طرفي لأعين موقعي بالضبط ، اكثر من عشر ساعات قضيتها للوصول الى هنا لأني لم اقم بجذفة واحدة ، كان باستطاعتي أن أصل الى هنا في اقل من اربع ساعات لاسيما وأني كنت اسير مع التيار ... سوف يعلم قارئ هذه السطور إذا كان ثمة قارئ لها ، سيعلم أني لم استطع من تسجيلها في حينها ، إلا أن ذلك لن يضيره في شيء ... لأن القلم كان يحترق عندما بدأ بتسطير هذه العبارات ولم يفته منها إلا بعد أن تحول الى سطر من رماد ...

— ١٠ —

اصبحت قريباً من - الخليج - البرحم الأرضي للمتد الى ما يقرب

من وسط النهر وقد تولد خلفه اصبعاً مائياً بمثابة ميناء للجثث والاوساخ. ورغم أن القمر كان بازغاً يمد اصابعه في كل مكان ورغم أن النجوم كانت تتواثب على صفحة الماء كما تتواثب الارانب في الحقل فاني شعرت بالظلمة ، وبالحيرة ، إذا أنا وجدتها ، فهل سيكون باستطاعتي انتشالها وحدي ؟ وفي هذا السكون المطبق ، الذي هو أشد علي من الف صراخ ...! محال ، إن يدي لترتعش ، وإن مجرد التفكير في أمر جثة تعوم في الماء يذيب معظم الشحم في عصابين [1] جهاز توازني.

ومن أول نظرة الى الخليج وجدتها ، كانت كتلة مستطيلة الشكل سوداء وكبيرة ، عالية نتيجة للانتفاخ ، وتلمست جيوبي واخرجت منظاري الاسود ، تجنبت النظر اليها ، بل إني لم انظر اليها ابداً سوى تلك النظرة التي القيتها عليها من بعيد ، وعندما نزلت الى الارض اشعلت سجارتي وحتى في هذه الحالة فاني كنت اخشى من أن تزحف على الارض.

وفكرت طويلاً وبحثت عن المدعي والمدعى عليه في هذه الجريمة وتخيلت نفسي في قفص الاتهام أرد على الاسئلة : - بتأريخ كذا علمت أن (مبهن) قد هربت من اهلها بعد أن افتضح أمرها مع أحد الجنود الذي كان جاراً لها ايضاً. وهذه نقطة جديرة بالبحث ، ألم أكن الدافع الأول في إيقاظ غريزتها السابتة ؟ وكنت سبباً في فرار أهلها من الحي ، لابد أنها طلبت من الجندي أن يتزوجها كما طلبت مني ورفض كما رفضت أنا من قبله . اخبرت أمي بعزمي على السفر اليها فمنعتني وهددتني بأنها سترمي نفسها للأسماك إذا لم انثني ، لم أأبه بتهديداتها ، وعنـــدما كانت السيارة تجتاز بي جسر ديالى ، رأيت

(١) العصابين جمع عصبونة وهي الخلية الواحدة في دماغ الانسان.

(عارفاً) آخر يجلس جنبي في سيارة الخيال ، خاطبته : « مئات الزهور تذوي وتذبل وعنكبوت واحد يعمر » . ووجهت الكلام الى أمي : « لو أنك وافقت على زواجي من عشر سنين خلت إذن لكان لدي الآن اطفال منها ، عدد وفير منهم يحيطون بك ، يدغدغون رجلك كما كنا نفعل مع أمك المرحومة ، ينادونك جدتي كما كنا نناديها . يقيناً انك أنت التي ذهبتِ الى الموت ولم يكن الموت هو البادي ، أما أن تستشهدي بهـــذه الآية : « وإذا جاء أجلهم فلا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » صدق الله العظيم ، أو تكررين حديثك عن الأجل الذي كنت قد حدثتني به منذ زمن ، فقد احضرت جواباً لكل ذلك ، والقصة التي اعنيها هي : -

« كان الناس حول تلك البحيرة الهادئة قد سمعوا منادياً ينادي : « الأجل وصل وصاحب الأجل لم يصل بعد » لكنهم لم يعلموا مكانه (أعني المنادي) ، ربما كان هذا النداء نقيق ضفادع أو ضجيج عصافير وفسروه كما قلت ، ثم ، وما هي إلا ساعة وإذا بفارس يأتي مسرعاً ثم يترجل عن جواده ويربط حبله الى جذع نخلة ويغط في الماء ... »

— ١١ —

خرجت من افكاري تلك بخطة مبتكرة هي أن ادير الحبل حول الجثة وأصلها الى مؤخرة الزورق ثم اسحب الزورق سحباً دون أن أنظر ...

قمت بالعملية خير قيام وهرولت على الساحل والزورق يصفر في الماء وكأنه لحن حزين لم التفت خلفي ، ومع ذلك فأن كل افكاري كانت

مركزة فيها . مددت يدي الى جيبي مراراً وابتلعت بعض اقراص البنزدرين التي بقيت لديّ . ومرت أخرى ملفحت كأس الخوف في يدي ولكن في هذه المرة كانت خوفاً أخروياً ، خوفاً من غضب الله ، ينبغي عليّ أن أجيب على هذا السؤال أولاً .

هل ان الانسان حر مريد قادر على الخروج عن مشيئة القدر ؟ فاذا لم يكن كذلك فكيف يكون التكليف . وإذا كنت مقيداً مكرهاً على ما افعله فكيف نفسر هذه الآية الكريمة « اليوم تجزون بما كنتم تعملون » . لقد قرأت كتباً كثيرة في العقائد واللاهوت فلم اعثر على جواب شافٍ ، اذكر الآن آراءً كثيرة مثل : « ان الانسان حر مريد وإلا سقط عنه التكليف ، وان وان ... لكبار الفلاسفة » .

يظهر أني بدأت اهذي ، ربما اكون قد تعديت الحدود فأتهم بالكفر أو يقال عني « ان ايمانه أشبه بالاموال المجمدة » أقل ما يقال ، هذه القصة تلح عليّ أن اذكرها وهي من قصص أمي ايضاً قالت : -

كان هناك في اقصى البلدة امرأة عجوز لها ولد تحبه كثيراً لأنه وحيدها وصادف أن رأى ابنة الامير فوقع في غرامها وارتفع في غرامه الى اعلى درجات الغرام الخمس . حب وغرام وعشق وهيام وتتيم ...

قالت لترب معها جالسة أخيتي هذا الذي نراه من
تات فتى يشكو الهوى متيماً قالت بمن ؟ قالت بمن قلت بمن

وارادت الفتاة ان تمتحن فتاها وتحقق في صحة حبه وفي أي درجة فتمارضت ، ولما زارها انبأته بأن الاطباء وصفوا لها قلب أمه ، فما كان منه إلا أن ذهب الى أمه واخرج قلبها... وهرول به الى حبيبته .

- لم تكن الاميرة جادة في قولها ، لقد امتعضت وهجرته الى الابد .

اضافت أمي . تصور ... تصور انه كان يسقط اثناء الطريق من شدة الفزع وكلما سقط أرضاً كان القلب يقول له : « اسم الله ، اسم الله » .

- امرأة رائعة ...!

- من ؟

- أنت ، لأنك تجيدين اختيار الموضوعات .

هذه القصة لن تمحى من ذاكرتي أبداً ، ستحضر في مخيلتي كلما رأيت أماً تعاتب ابنها ...

— ١٢ —

ينبغي عليّ أن اوجد حديثاً آخر يساعدني على اتمام الطريق ...

لا يوجد اظرف من حديث حذائي ، حذائي نفسه كان قد مرت عليه ادوار استحالة كاملة فمن حذاء مستعمل يشتري لي من سوق « الاسكجيه » الى حذاء (كودري) فاخر لا يفارق دكان الصباغ .

اذكر (المستر فوكس) معلم اللغة الانكليزية ، حينما سحبني من ردائي ذات مرة وقال لي : « بني خذ هذه وصلّح حذاءك » ، ووضع في يدي قطعة من ذوات العشرة فلوس ، سحبت ردائي وتركت القطعة تسقط ، تدور على الارض ، تتحدث عن عزتي ، لقد علمتني خبر الماضي كيف ارفض كل هدية ، اقصد بذلك « عمو رحيم » .

لماذا أنا ناقم على هذا الرجل طالما ظهر اني كنت مخطئاً في تقديري معه ، فلقد اخبرتني أمي - عندما رأت مبلغ جزعي كلما رأيته يقترب منها - إنه أخوها ، أخوها بالرضاعة ، أي انه خالي ولقد ذكر هو ذلك مراراً اثناء زياراته المتكررة كأن يقول : « رحمة الله عليك يا أمي » يقصد

بذلك جدتي . سألت والدي عن ذلك في رسالة مطولة ، فكان جوابه (صحيح انه أخوها) ، فلابد أن أكون قد ظلمتها ، ويكون من غير المعقول وجود سوء قصد عنده في اعماله السالفة .

— ١٣ —

كانت العصافير قد احتفلت بولادة يوم جديد ، فرشت اجنحتها وزقزقت ، فتململ الكون الوسنان ونهض متثاقلاً إما على هيئة راعٍ يهش على غنمه بعصاه ، أو في صورة شيخ يعبث بحبات مسبحته الطويلة ، وقد خرج للصلاة ، كان الزمن يمشي على عكازتين عقرب الدقائق وعقرب الساعات ، الأولى تأكل في حصة أختها . لقد مشيت كل هذه الساعات الطوال دون أن التفت ، كانت مشاركة مني لها أن أمشي على قدمي ، لقد مررت بمناطق (السيدية وأبو جحاش وأم العصافير وأبو رميل ثم گرارة و...) سوف استعين بأول شخص يصادفني في حمل الجثة الى الزورق ...

ورأيت شخصاً يركض خلف دابته يحمل حملاً ، ناديته ، وطلبت منه برفق أن يساعدني ولما وصل قال : أين هي أمك ؟ وتوقفت وفغرت فامي مشدوهاً ... ماذا أرى ؟! هذا مهد « كاروك » ؟!!

- اخشاب مهد « كاروك » ألا ترى ؟ ونظرت ، ارجل « كاروك » مشدودة مع بعضها وقد امتد الجمر بينها بحيث ترى كأنها جسم انسان ، ورمانتي « الكاروك » الكبيرتين كانتا كالرأس تماماً علاوة على المفرش العريض وقد دثرت جميعها بالأزار حتى الوسادة كانت موجودة ، وإذن فمن المحتمل جداً أن يكون هناك طفل مفقود ،

يا للمصيبة ! إنها افظع من مصيبتي بألف مرة ، اصبح من الأفضل لي تصييب الاخشاب قبل أن اقع في مأزق جديد .

وكان الذي يجعلني استغرب اشد الاستغراب هو غرق هذا المسكين في مهده ، كيف يتعاون النحس فيأتي بمن لا يستطيع المشي ، ومرة أخرى عدت الى قصة الأجل ، الفارس المسرع على فرسه لكي يدرك الأجل في ماء البحيرة الساكن ، والطفل الرضيع العاجز حتى عن الزحف تبلغ به الحالة الى أن يأتي هو ومهده ليغرق ويبقى مهده يدل على ما للقدر من قوة ، دليل تلو دليل تثبت صحة اقوال أمي ، إذ أمي لم تذهب الى النهر إلا لأنها كانت مجبرة على الذهاب . فلابد من وجود قوة خارقة تسيّرنا ... إذن

لقد قرأت تعاريف كثيرة للقدر ، فالفيلسوف اليوناني (زينون) يعرّفه بأنه القوة التي تحرك الهيولى[1] وهي قوة عاقلة ، أما ارسطو فيعدُّها العلة الأولى أو المحرك الأول .

— ١٤ —

كانت الشمس قد ارتفعت الى مقصورتها في بؤرة السماء على سلم غير منظور ولما اصل بعد الى مرحلة الدورة . كان هناك شخص يتقدم نحوي ويأخذ في حل عقدة الحبل وهو يقول : ـ نشكرك ممنونين

ـ ماذا تقول ... ؟ لست افهم

ـ هذا « الكاروك » سقط من السفينة الليلة الماضية وقد تعطلنا من اجله

ـ والطفل : ألا يهمكم من أمره شيء ؟

(١) الهيولى : المادة الاولى (الأثير) .

- أي طفل تعني ؟ ألا تراها مجرد اخشاب نقوم بنقلها

- والآن أين وجهتكم ؟

- الى بغداد (الماطور) يرسو خلف تلك الاكمة

- إذن ستمرون بطريقكم على محل كذا وتجعلني شاكراً اذا سحبتم هذا الزورق معكم ، أعطيكم عليه أجرة .

— ١٥ —

حوالي الساعة العاشرة من ذلك الصباح ، كنت جالساً في سيارة باص كبيرة متجهاً الى بلدتي عندما سمعت وسمع كل المسافرين الذين كانوا معي في السيارة اصوات « امسكوها » ورأيت فتاة تركض ، ثم قفزت إلى سيارة (جيب) ومرت بها السيارة لولا أن الأجل ، اجلها ، كان اسرع منها إذ تصدى لها في شكل ارض محروثة عرقلت انطلاق السيارة .

ونزلنا جميعاً لنرى ميهن وقد نقلت الى السيارة الاخرى واجبرت على الجلوس في المقعد الامامي جوار السائق بينما تعلقت بجدائلها امرأة عجوز ادعت انها أمها . وكان يعاونها في ذلك رجل مليح ، عليه عباءة صفراء يجلس جنبها في المقاعد الخلفية ، كانت ميهن المسكينة تنتحب تحاول الافلات ، تتلوى كما تتلوى السمكة في يد صيادها ، تستغيث بالواقفين فلم يجبها منهم احد ، حتى أنا لم أبد أية حركة ، ماذا اعتراني ...!؟ وعندما انحسر ثوبها رأيتهم يحملقون بصدرها العريض البارز ونهديها الصغيرين المكورين والحلمة الحمراء كأنها منقار عصفور اثارت فينا الفضول الى النظر ، نسيت حالتها .

ثم انطلقت بها السيارة بينما ظلت سيارة (الجيب) جاثمة كأنها ذبابة

كبيرة بعد أن نزل منها رجلان رجعا الى (قواعدهما) في البار (سالمين) . قال احد الواقفين « تحت عباءته كان يخبيء خنجراً » وكثر اللغط .

وهتف السائق فينا (اصعدوا) فصعد الركاب جميعهم ما عداي ، فأجبته : ـ لقد وصلت ، وطفر الدمع من عيني . لِمَ احجمت عن مساعدتها ؟ يا لي من رجل جبان ، إني اجبن من الخلد احياناً واشجع من النمر في أحايين أخرى .

— ١٦ —

ودلفت الى البار وناديت على النادل وطلبت زجاجة « بيرة » وافترشت اوراقي وسجلت كل ما مرّ حتى بلغت هذه العبارة :

أحسب ان فؤادي سيموت ، وسينسى خفقه المنغم والمؤلف من سلالم موسيقية ، إني اسمع دقات الطبل الحزين تقرع امام نعش الذكريات... لمن أحيا بعدها ؟ لقد خسرت آخرتي ودنياي . كان القلم يحترق عندما بدأ بتسطير هذه العبارات وها هو وقد انتهى منها صار قالباً من رماد ...

— ١٧ —

صار معلوماً لدى الممرضات الثلاث أن المريض قد انتهى من افادته ، وسألنها :

ـ ... وكيف وصل الى هنا ؟

ـ أوصلته سيارة الاسعاف ، قال الطبيب عنه : « انه حصل تسمم ليس بفعل البنزدرين وإنما بفعل « البنتال » [1] علاوة على المشروب .

ـ ومن هي المرأة التي جاء ذكرها في اول القصة ؟

ـ إنها أمه

---

(١) البنتال : حبوب أخرى تعمل ضد البنزدرين ولكنها سامة .

- لكن أمه كانت قد غرقت في النهر

- لقد اوهمت أهلها انها ذاهبة الى النهر ، وتركت بعض أسبابها على الشاطىء وسافرت الى اقربائها . وكانت المريضة الثرثارة تسمع فقالت :

- إنني مريضة مقيمة هنا

- ماذا تقصدين ؟ فهمت . سأجيبك عنه . أما لماذا قلت (حدث في الليلة الماضية) وليس (في ليلة ماضية) ؟ فذلك لأني أردت إثارة فضولكن ، وعن المستشفى بأنه برزخ ضيق بين الحياة وما بعدها ، فاما أن يمر الشخص أو ينتظر الى وقت آخر كيما يلائم شكله شكل الممر فيمر فيه ولتطمئن مريضتنا العزيزة من أنها سوف تجتازه هذه المرة إن شاء الله .

خروف قسم الحيوان

التقى خروف قسم الانسان بشيخ الأبالسة ،
وتناطحا فلمن ستكون الغلبة ياترى ؟..

كان يلتهم عشاءه التهاماً ويسرع بعدها الى خزانة كتبه ليلتهم موادها بشهية اكثر - ويكون ذهابه الى فراشه متأخراً - من الاشياء العادية ، وربما لا يذهب ، فيقضي ليلته يلاعب ضفدعته ويستعيد الفصل الواحد مرات عديدة ، لأنه من ذوي الذاكرة الغربالية يقرأ وينسى ما قد قرأه منذ ساعة من الزمن ، يعلل ذلك لنفسه بأن الوعاء يفيض اذا امتلأ وان ما يتبدد منه هو الزبد .

إذا جاء الى منضدته تكون خزانته عن يمينه فيمد يده الى المقبض ويجذبه دون أن يلتفت وعندها ترتطم الباب على سندان قائمة الكرسي ثم يفتح كفيه ويغرف بقدر ما يستطيع بينما تكون قدماه لا زالتا عند اسفل المنضدة . ويشرع بالتدقيق والتحقيق وهناك يأتي دور ضفدعته المشهورة والتي حاز بها أعلى درجة في موضوع الهياكل ، أو انها هي التي حازت ، ولذلك فهو يحبها ويعيد لصق فقراتها كل ليلة ، فهي سلسلة العمود الفقري والاطراف وكل شيء ما عدا اللحم والدم .

بقي علينا أن نعلم كيف يحق له البقاء ساهراً الى ما بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً طالما كان طالباً مقيماً في قسم داخلي يسري فيه نظام اطفاء الانوار بعد تلك الساعة ، فقد اخذ صاحبنا حيطته للأمر بأن تعود على شراء شمعة (كافور) كل مساء ولا ضير في ذلك فان للشمعة فوائدها في لصق هياكله وفي علاج فطور رجليه - الداء الذي خلفته له ايام صباه السود عندما كان يجري وراء الدواب حافياً ليجمع قيمة الكتب والملابس لأيام دراسته - كانت تكلفه هذه العمل من بداية العطلة الصيفية الى نهايتها حتى ان ساعات جلوسه على مصطبة الدرس صارت هي ساعات راحته الحقيقية .

كنت اراقبه وأنا تحت « البطانية » كان يصنع من المنشفة عمامة كبيرة ، ومن بطانياته مئزراً يلف بها ثلثي جسمه تقريباً ، ويتساهل مع منظاره في التزحلق حتى عرنوصة انفه بينما تكون اصابعه تتجاذف بالقواقع والهياكل والاصداف التي كان مولعاً بجمعها حتى انختلط اصابعه بالعظام فلا تكاد تتميزها ، فأحشر وسادتي في فمي اغالب الضحكة ، فاذا انفجرت فلا مناص من مغادرتي السرير بقفزة (ارنبية) أصل بها نهاية الغرفة قبل أن تصلني قذيفة « مكي » يصوبها إليَّ وهو في أشد الغضب ومعها خمس كلمات تخرج من فمه دفعة واحدة « لو مسكتك لسحقت عظامك سحقاً » وبعدها اسرع بالتذلل والتوسل حتى يعفيني اخيراً ، هذا اذا لم تصب الوسادة شيئاً ، أما اذا قلبت دواة أو اصابت كرسي الاكواز مثلاً فلابد حينئذ من استدعاء مراقب الاقسام ولابد من قضاء تلك الليلة في سرير آخر ، ذلك لأن « مكي » كما كنا ندعوه كان ضخم الجثة مفتول العضل يمارس الرياضة العنيفة فليس لأمثالي ذوي الاجسام الضعيفة من سبيل الى مقاومته إنما كنت كالكبش اناطحه من بعيد .

أطلق عليَّ اسم ابليس وسرعان ما انتشرت هذه التسمية داخل المعهد وخارجه « أين ذهب ابليس ؟ متى يرجع ابليس ؟ وتعال يا ابليس وقم يا ابليس . حتى تغلغل ابليس في عروقي وسرى تأثيره في دمي وملأت رائحته انفي فألفتها وشيعت الايمان من صدري وغارت بذور الخير في قلبي واستنبتت مكانها نوايا الشر وغاصت كفاي في بركة من الاثم اللانفمي وهما مفتوحتان دون ان تلتقي السبابة بالابهام ، واستقل الشيطان في صدري فكان منها أني اغويت طالبة من زميلاتي في الصف ، ومعنى

الغواية في عرفي المؤدما عن الدراسة بواسطة تشجيعها على القرايض مدعياً لها إني مكتشف لديها موهبة عظيمة ، أو في خلق الاكاذيب وترويج الاشاعات من أن فلان خطب فلانة أو في التندد على مدير الاقسام (ذي الاذن الرصاصية) كما كنت القبه ، امرق حاجة من حاجات الاقسام بقصد النكتة ، اغير محلها فقط ثم ارجعها الى مكانها بعد مدة قصـــيرة . واخيراً لعبتي التي ندمت عليها كثيراً . فان تلك النكتة البسيطة تقمصت في شكل ضبع جائع والتهمت آدمياً بقلبه وعقله ، ابتـكرتها وأنا في طريقي الى الردهة ذات مساء ، وقبيل أن يلتحق الصباح بالمساء كانت خلقتها قد تمت ، رفعت كفها في وجهه كما تفعل الهرة بفأرها الصغير وكان عليه أن يتماسك ويشد من عزيمته — غير انه خاف وارتعد وانهار اخيراً كما ينهار الجدار القديم . تمنى كثيراً لو أنه مات ودفن قبل أن يلتقي بها ، تلك الـكتابة المشؤومة ، والآن آن لك أن تعرف كل شيء في سر تحوله .

بعد أن نام جميع الطلاب و « ماكي » ايضاً نهضت من فراشي وأنا ارتعد خوفاً وافيض اصراراً على انجازما انتويت . تناولت قلم « كوبيه » وغمسته في قدح ماء وصرت انقش هذه العبارة بخط ضعيف : « ماكي فرحان خروف قسم الحيوان » على ملابسه وفي دفاتره وكتبه وحتى على قبعته وحذائه ، تعمدت كتابتها باليد اليسرى وغادرت فراشي مبكراً .

جرى ذلك اليوم عادياً بالنسبة لهم جميعاً ماعداي فان « ماكي » لم يفطن الى الـكتابة إلا في المساء وبعد أن رآها جميع الطلاب ، وحينئذٍ بدأت اعراض الاصـــابة تظهر على وجهه وانتشرت التسمية وشاعت كـتابتها وصار يلقب بالخروف ولو كنت معنا لسمعتهم ينادونه :

ـ وين راح الخروف ؟ أشو ماكو الخروف ؟ غايب الخروف ! اطلب

كتاب الحروف .. وكان اختلافي عنه إني افرح من تسميتهم لي ابليساً أما هو فانه ما ترك طالباً في القسم إلا وتخاصم معه ، ومع انه لم يشتبه بي ولم يقدم شكاية ضدي إلا اني زيادة في الحيطة ابلغت رئيس الاقسام بعدائه التقليدي لي مما قد يجعله يظن اني أنا الفاعل ، وجرى التحقيق فعلاً وقورنت الامشاق فكتبت باليمنى ولما كانت الكتابة بخط ردئ فقد اشتبه بواحد من الفراشين ، واضفت أنا نفراً جديداً بأن شهدت ضده ففصل من الخدمة ، وتوسعت الهوة عندما جابه مكي أحد الاساتذة بكلمات لا تليق بكرامة المدرس وكان الاستاذ يمزح معه إذ قال له : « صدگك أنت خروف » فلما لأن مكي عجز عن الاجابة على سؤال بسيط وغادر مكي قاعة الدرس بعد أن قرع الباب بشدة وصار أمر فصله متوقعاً من قبل هيئة مجلس الاساتذة . عند ذلك بدأ ضميري يستيقظ ، هذا الرجل المسكين الذي شقي بالحياة حتى وصل الى هذه المرحلة من الدراسة ومن المنزلة الاجتماعية ، كيف اتناول معولاً قاسياً (هو لساني الطويل) واهدم صرحه من تحت قدميه ؟ وما فائدتي في ذلك ! ثم الفراش المسكين ، الذي كنت سبباً في قطع رزقه ربما كانت له عائلة جائعة واولاد يصرخون ؟. يا للرعونة ! إن كثيراً من الناس العاملين والأذكياء والطيبين يذهبون ضحية للفوضى ، للهرج ، للاشاعة المغرضة .

ومكي هذا تحول بين نهار وليلة من شاب مرح لعوب الى رجل عصبي ارعن لا يسلم من لسانه أحد ، وكان يبدو شارد الذهن قلق التفكير يهذي في نومه ، ثم طمس ذكره فجأة فلم نعد نراه لا في قاعة المدرس ولا في حجرة النوم .

لقد اختفى مكي تاركاً خزانته مفتوحة وأسبابه مبعثرة ، واغتنمت

الفرصة فأحضرت « ممحاة كبيرة » وبدأت ازيل آثار الحروف العنيد ،
ما دام الحروف في المرعى ، قمت بمحو معظم الكتابة التي خططتها على
كل ورقة في كل كتاب بحجة اني اقوم بعمل خيري .

والى هـــذا القدر جرت الأمور في صالحي أما فيما بعد فقد سارت
من سيء الى اسوأ . اخذت الشكوك تساورني والاوهام والاشباح صارت
تتراقص أمامي ومهما حاولت في اقناع نفسي بأني لا أعد مذنباً في ذلك
لم افلح . كانت العيون كلها تصوب نحوي والاصابع كلها تتوعدني حتى
زميلتي الشاعرة بدأت تتجنبني ولا تود الاصغاء إليّ بشيء . اذكر مرة
اني دخلت الصف حينما كانت تروي لزميلاتها إحدى مؤامراتي قالت :

(وضع على عينه منظاراً اسود ووضع يده على كتف زميله وصعد
الى « باص » المصلحة فتوهم الجابي من أنه كان بصيراً) . وبعد أن ضحكن
قالت : ملعون ، ملعون جداً ، وفهمت ما كانت تعني بكلمتها . ثم رسبتُ ،
ورسبتُ سنتين متواليتين وفصلت من المعهد ولم يبق لي منه سوى مجموعة
من التصاوير أحتفظ بها في اضمامة لطيفة ، فكلما هاجت بي الذكرى
واشتقت الى رؤية سميرة اخرج الأضمامة وأقلب فيها ، رحمة الله عليك
يا مخترع آلة التصوير ، في هذه الصورة أقف أنا خلف مكي . أين
هو الآن !

لقد اصيب بلوثة عقلية ومات منذ زمن طويل ...

معايدة

المعايدات بمثابة صابون للقلوب !، والقلوب هي كمصابيح الشوارع تهدي المارة .

والشك والريبة هما بمثابة الضباب ، فحيثما يكثر الضباب يكثر التصادم .

اراد أن يأخذ زمام المبادرة من اصدقائه ومعارفه فيرسل (معايدات) اليوم في وقت مبكر ، ثم ان العيد فرصة نادرة لازالة كل سوء تفاهم وهو وسيلة ناجحة للتقرب من الرؤساء والمتنفذين . ويدعي هو - فا يدعي - ان طريقة اختيار المعايدة المناسبة فن من الفنون التي يجهلها اكثر الناس ولذلك أتى الى بغداد لينتقي مجموعة ممتازة منها ، وقرر أن تكون أول معايدة يرسلها الى رئاسة صحة اللواء الذي ينتسب اليه ، فان لهذا الرجل - يعني بذلك رئيس صحة اللواء - فضلاً كبيراً عليه سيما وأنه هو الذي عينه مساعد مضمد في قرية « السيبلية » ، وهذا ليس بقليل لأن قيمة مساعد مضمد في القرية اكثر من قيمة طبيب في المدينة .

وما إن برزت له هذه الفكرة - فكرة ارسال معايدة الى « رئيس اللواء » - حتى وثب من فراشه ولبس ثيابه بسرعة ، ونزل الى الشارع وهو يسوي بهندامه ، وعندما بلغ - موقف الباص - تذكر انه لم يحلق ذقنه فتوقف وتردد بين الذهاب والرجوع ، ولما قرر الذهاب كان الباص قد فاته ولما اراد أن يجري خلفه طارت قبعته من رأسه ، وانحنى ليأخذها فسقطت دراهمه على الارض ، ولما جلس ليجمعها كان - الباص - الثاني قد وصل الموقف وخشية أن يفوته هو الآخر التي بدراهمه في جيبه بدون عد . وبعد أن استقر في السيارة مد يده يبغي عدها ، فوجد ان درهماً لعيناً كان قد تبحر منها ، وسخر من نفسه ، كيف يركب - الباص - من اجل اقل من كيلومتر ، وفي شارع الرشيد الذي هو امتع شارع رآه في حياته . من اجل كيلومتر واحد يخسر ستين فلساً ، واجدادنا كانوا يقطعون مئات الاميال من الصحارى مشياً على الاقدام دون تضايق .

ذهب الى سوق (السراي) ومر على بائعي المايدات يرفع واحدة ويضع أخرى دون أن يبتاع شيئاً هذه ثمينة وتلك رخيصة ، وعلى هذه صورة مزهرية أنيقة وهنا عاشقان يتعانقان والاخرى كانت على هيئة سلة فيها ورد غير انه يعتقد ان أنسبها لرئيسه ما كانت على صورة فراشة بيضاء أو ما كان عليها صورة اطفال يجتازون غابة كثيفة وقد حملوا على ظهورهم سلال فاكهة يتبعهم كلبهم الامين .

وكلت رجلاه من المشي دون أن يشتري شيئاً ، ولما شعر بالألم يعصر قلبه عصراً اسرع وعدّ عشرين بطاقة جاعلاً كل اثنتين من نوع ودفع ثمنها بعد أن وضعها في الاغلفة .

استقر رأيه أن يذهب الى احد المقاهي لكتابة (العناوين) ، ووقف يتأمل أي المقاهي تتوفر فيها الراحة ، فالمقهى الفلاني مزدحم وصاخب ، والمقهى الفلاني قذر ومظلم ولما طال به التردد ، قطع (رأس الشليلة) بأن قصد اقرب مقهى فوجده مغلوقاً وقصد الثاني فوجده مغلوقاً ايضاً ودار حتى أحس بالصداع ، وقبل أن يستقر رأيه وجد مقهى « نصف مفتوح » ووجد له فيه محلاً للجلوس فجلس .

ظل يفاضل بين البطاقات يغير ويبدل حتى ملّ من التقليب وعندها ترك الانتخاب ولم يلتفت الى الصور لأن الصور - ألاعيب اطفال - تناول واحدة وكتب فيها :

- الى أعتاب الرئيس الجليل والاديب الكبير الدكتور كذا ...

- من خادمكم المطيع المخلص ابداً المضمد فلان ... وذيلها بتوقيعه وعلق تحته « سيدي اشملونا بعطفكم عند تقديم قوائم الترفيعات ، ولما وضعها في غلافها تذكر المحروس ولده وتذكر أنه جاء الى القرية برفقة

والده في إحدى جولاته التفتيشية فوعده صاحبنا بأن يجلب له غزالين صغيرين « ذكر وانثى » هدية له عندما يأتي في فرصة العيد ، أحس بموجة من الحب نحوه ، لا لأنه ابن مديره وإنما لما لمس فيه من قوة اتزان ولباقة في الحديث رغم أن سنه لم يتجاوز العاشرة بعد ، ولذلك فانه يفضل ارسال بطاقة خاصة به . ولكن بماذا سيبدؤها ؟ « الى الاستاذ الاديب كذا ... أم الى أخي الصغير ... الخ » ما من شك في أن الطريقة الأولى اكثر تلائماً مع اهدافه ، وان قول « الاديب الكبير » لا يقلل من منزلته هو شيئاً . ولما انتهى من كل ذلك رفع رأسه الى ساعة الحائط فوجد عقاربها راسيةً على الثانية عشرة تماماً ولذلك قفز من مكانه تاركاً قلمه واوراقه ، فمن حسن الصدف ان دائرة البريد تقع خلف المقهى الذي يجلس فيه ، ولما بلغ الدائرة كان البائع قد اغلق خزانته وهم بالانصراف ، فرجاه صاحبنا أن يفتح الخزانة ويعطيه طوابع لبطاقاته فرفض هذا مبيناً له ان باستطاعته المجيء بعد الظهر لأن لديهم وقتاً محدداً وكرر رجاءه وكرر البائع كلامه « دوام مزدوج يا اخي » وحينئذٍ قال في نفسه « اوباش معدومي الضمير » فصرخ فيه البائع « من . من يا... » واشتد الخصام بينهما لولا حضور بعض الناس ، ولما خرج من الدائرة تذكر ان في محفظة نقوده طابعين من فئة العشرة فلوس فأسرع في لصقها ورمى البطاقتين في الصندوق الخارجي ، وعندما شعر كأن حملاً ثقيلاً رفع عن كاهله ، وبعيد ذلك بقليل تذكر انه نسي تسجيل التاريخ فلم يكترث ، ولما وصل الى محل جلوسه في المقهى وجد أن قلمه قد سقط على الارض وان اوراقه قد تناثرت فامتعض وعاتب صاحب المقهى ولكن صاحب المقهى ردَّ عليه : « سيد ، كلي هذي كهوه لو حمام ..؟!

حزين ما عفت جيمك ...! » وتذكر انه لم يشرب شيئاً فنادى عامل المقهى وطلب « كوثر بارد » وقبل أن يحضر الكوثر غير رأيه وقال : لا لا ارجوك شاي ... لأن بطنه قد امتلأت بالماء أو حامض لأنه قد أكل تمراً قبل مجيئه الى هنا فأفهمه العامل أنه لا يوجد غير « السوده » .

بعد أن انتهى من شرب « السوده » مدَّ يده الى قلمه ليستأنف الكتابة فوجده قد كسر واراد أن يصرخ وأن يلعن ولكنه هدأ من روعه وزعم لنفسه انه إنسان صبور ، ثم مد يده الى جيبه واخرج قلم « رصاص » ، صار يكتب لكل صديق : « معذرة يا اخي اذا كتبت لك بقلم الرصاص فاني قد فقدت قلم الحبر الآن ، ودهش عندما رأى - أن البطاقة التي عليها صورة دب أرقط يقوم بتسلق العمود الى الدالية ليقتطف عنقوداً زنجياً - ان هذه البطاقة غير موجودة وفتش تحت الكرسي فلم يجد لها أثراً ، فلابد إذن انها صارت من نصيب المدير ، هذه البطاقة ذات الصورة المضحكة إذا اشتراها لأخته . ماذا سيكون انطباعه عنه « بلادة وقلة ذوق » ليس غير .

وفي المساء اجتمع مع بعض من أتوا معه من القرية بقصد قضاء فترة العيد في بغداد .. وساقه الحديث الى أن يروي قصة الطوابع وكيف حلت له مشكلاً فسأله أحدهم :

- الطابعين اللذين اخرجتهما البارحة

- أحسنت ، هما

- لكنهما كانا طابعي مالية

وعندها جمد الدم في عروق صاحبنا ، كان قد توهم فيهما ، صحيح انهما هما الطابعان اللذان زادا من طوابع (النثرية) واضطر الى كشف

أمره لهم فانفجروا ضاحكين وتباروا في وصف كثير من النوادر عنه والتي نقلها المدير نفسه ، لم يعبأ بما قالوا وكان خوفه مركزاً - في الفكرة - التي سيحملها المدير عنه ، إنما الشيء الذي ازعجه وادهشه كثيراً هو ادعاء أحدهم انه رأى مرة ابن رئيس الصحة يخرج لسانه وراء المضمد ، حتى هذا الطفل يستهزئ به ، وأضاف الآخر شامتاً : - ليطمئن سعادة المضمد أن خبر طوابعه سيوزع على كل سكان اللواء مع ارباع اللحم التي يوزعها القصابون على زبائنهم أو في (علاليق) النساء مخلوطاً مع « المخضر » . والحل الوحيد لذلك هو أن يذهب الى دائرة البريد ويسحبها من الصندوق ، وبين له الآخر انه يفضل أن يسجن شهراً كاملاً وان يقال من وظيفته على ارسال بطاقة مثل هذه الى مدير أو الى محاسب فلكل انسان كرامته ! ينبغي المحافظة عليها مهما كانت منزلته المعاشية .

في اليوم التالي بكر في الذهاب الى دائرة البريد ولما رآه البائع زم شفتيه وقلّص حاجبيه وقال : « نحن أوباش ، تريد تتعارك ؟ » وعندها اجابه بلطف بأنه لم يأت لأجل الخصام وإنما يريد أن يسحب البطاقتين لأنه كان قد وضع عليهما طوابعاً مالية ، فرقّ قلبه له ولكنه بيّن له ان « الرسائل والمعايدات » ترسل في أيام الاعياد على دفعات متوالية ولذلك فان بطاقتيه في طريقهما الى صاحبيهما ، والحّ كثيراً في سحبهما ولكن الموظف أكد له الف مرة أنه لا يجوز سحب الرسالة أو المعايدة بعد تسلمها مهما كانت الظروف والاحوال بالاضـــافة الى أنهما في طريقهما الى ...

وفكر طويلاً كيف يزيل أثرهما السيء وأخيراً توصل اليه بطريقة

جديدة هي ان يرسل رسالة الى المدير يذكر له انه كان قد وعد المحروس بغزالين صغيرين ولكنه لم يستطع الحصول عليهما فهو يعتذر وبعد ذلك يمكنه أن يوضح خطأه في المايدتين ويسترجع شيئاً من كرامته المسلوبة .

وتحير مرة أخرى كيف يبدؤها ؟ كما بدأ المايدة السابقة « الرئيس الجليل .. ومن الخادم المطيع ... كذا » لا فقد حط من كرامته كثيراً ، وتحرك فيه الغرور كما يتحرك جيش النمل من اسفله إلى اعلاه ، ولم كل هذا فهو موظف ورئيسه موظف ايضاً ولو انه يقل عن رئيسه في الراتب ، ثم أمسك بالقلم وكتب :

زميلي الاستاذ أبو ... الورد لم يقل « المحترم » ... لا شك انك متضحك من مايدتي كثيراً اما انا فأود ان اخبرك اني أحترمك واقدسك لا لأنك رئيسي وانما لانك اكبر مني سناً ولك فضل علي ثم ان الانسان باستطاعته أن يؤذي مهما كان صغيراً ايهما اكثر ايذاء البعوضة أم النحلة ؟ ظل طوال الليل ينمق ويصحح وفي الصباح اسرع إلى دائرة البريد خوفاً من أن يتغير رأيه وأرسلها مسجلة ، وعاد الى الفندق وهو يلعن الرئيس ومن سعى في تعيينه ، ومر اليوم كله وهو في حالة هياج ولما التقى بأصدقائه بشرهم بأنه قد ارسل إلى المدير كذا رسالة قاسية ، فنبروه من جانبهم بالفصل .

- كيف ترسل مثل هذه الرسالة وأنت تعلم أنه رجل عصبي المزاج .. سوف يفصلك حتماً . ظلت عباراتهم هذه تدور في رأسه كما يدور اللبن في القربة عند خضه ، لكنه لا يستطيع أن يفعل اكثر مما فعل ، ولذلك فقد ظل منكمشاً على نفسه طيلة الأيام الثلاثة وفي اليوم الرابع سافر جميع اصدقائه وظل هو مدعياً ان لديه بعض الأدوية الصيدلية يريد جمعها وفي مساء ذلك اليوم عندما رجع إلى (الفندق) وجد جواباً

لمايدته من رئيسه وأول مالفت نظره صورتها ، باقة ورد تقدمها يد الى يد أخرى ، فارتاح كثيراً لمغزاها وضاعف من ارتياحه ماخط تحتها « لقد اكبرت فيك تواضعك مع اني (فارس) وقد اعجبت كثيراً باختيارك هذه الصورة له صورة دب يتسلق عريشة العنب .

عقدت الدهشة لسانه وتحير في الأمر أنه لم يتوقع رداً كهذا ، أن كل الذي فعله كان بسبب تحريض زميله (فطين) له .

قرر السفر حالا الى مركز اللواء وهناك سوف يتدبر أمره فأما أن يسحب الرسالة - إذا لم تكن قد وصلت بعد - أو يتقدم الى المدير ويطلب العفو منه ويخبره عن المحرضين .

كان من محاسن الصدف أن يجد سيارة مستعدة للحركة فركب وظل طوال الطريق يسب ويلعن ولكن على نفسه هذه المرة ، وحاسب نفسه عما جناه من وراء مجيئه الى بغداد فلم ير غير القلق والمرار ، ترى ماذا سيقول رئيسه عنه اذا ماقرأ الرسالة ، انه ليخجل من نفسه ، وأنه يعترف بأنه مجنون ومجنون (تكعيب) .

ولما وصل إلى بلدة الرئيس وسر في السوق لم يعرج على دائرة البريد التي تقع فيه لأنه يعلم أن مأمور بريد البلدة (هو السيد محمد) وهذا الرجل يطيع القانون كما يطيع القطار سكته لا ينحرف عنها قيد أنملة .

عندما دخل الى (الرئاسة) في صبيحة اليوم التالي وجد رجلا آخر يجلس محل الرئيس ، وعلم بعد ذلك ان الرئيس كان قد سافر الى بغداد وان أمر نقله صار في حكم المؤكد ، تهلل وجه صاحبنا لهذه الأخبار واصبح سيان عنده تسلم الرسالة أو عدمه ، وسافر الى قريته وهو مرتاح الضمير ، لكن بعد أيام قليلة عادت وخيمت الكآبة على وجهه من جديد لأنه تسلم رسالة من اصدقائه في المركز تنفي اشاعة نقل المدير .

أم هيثم

لقاء عابر ولذة وقتية ، فيها وجع عظيم له بدون
أن تلحقها هي أية خسارة .
كان رجلا خيالياً وأعماله في ذكرياته ..
وكانت امرأة واقعية لا تهتم للتوافه .

كان ذلك اليوم - الذي أتحدث عنه - رائعاً ، السماء صافية فيه فكأنها البيضة المسلوقة والمقشرة ، وكان الناس فرحين مستبشرين لأنه أول يوم من ايام آذار وكل آذار من كل عام بداية لعهد جديد تتلخص فيه كيف اقبل الشتاء ببروقه ورعوده وكأنه جيش جياده هي الرياح وعتاده هي الثلوج . وكتب لهذا الجيش أن يندحر وقدر لهذه الاعتدة أن تنصهر وأن تجري سيولاً الى الانهر ، ثم دبت الحيـــاة واستيقظ الجمال في كل شيء ، تحولت الارض الى بساط اخضر وانعقدت الاغصان أكاليل جميلة ، أما شجيرات الكروم فانها كانت كالافاعي تتلوى فوق الاعمدة .

وساقتني قدماي الى إحدى الحدائق العامة وأنا اشعر بأن حملاً يزاح من كاهلي ، وهناك طاب لي الوقوف في ساحة (الاراجيح) ، اراقب الاطفال في لهوهم واقارن صياحهم بزقزقة العصافير على الاشجار ، ولما أردت الانتقال الى القطاع الآخر من الحديقة أخبرني فلاح بأنه مغمور بالماء وحذرني من أن يغوص حذائي في الطين بعدما رأى لمعانه وسمع حفيف ثيابي « المكوية » .

واضطررت الى السير على حافة المجرى كنت انظر الى قرص الشمس يتزحلق بين شبكة الاغصان المتكاثفة واقرأ في هـــذه الابيات لأمير الشعراء شوقي :

قفي يا أخت يوشع[1] خبرينا أحاديث القرون الغابرينا
وقصي من مآثرهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا
فمثلك من روى الاخبار طراً ومن نسب القبائل أجمعينا

---

(١) أخت يوشع : يقصد الشمس

فيا لك هرة اكلت بنيها وما ولدوا وتنتظر الجنينا

ولم انتبه إلا ورشاش الطين يستقر على (بنطلوني) كما يسقط الذباب في إناء الدبس . كان أحد الصبية « يلعب » برمي الحجارة داخل المجرى وبينما انحنيت اتدبر المشكلة فان بنطلوني هذا هو خير ما املك وإني كنت قد تسلمته من « المنظف » هذا النهار وإذا بصوت ناعم رقيق يرن في اذني :

- زمال هيثم شوف شسويت ابنطلون عمك .

وقامت الى إبنها ونزعت الحجارة من يده . وتسمر نظري على وجهها الجميل ، فلا هو اصفر كالقمر ، ولا هو أحمر كالشمس ، وإنما من امتزاجهما ، تتخدر الاعصاب تحت تأثيره ، وتنجذب اليه القلوب كما تنجذب قطعة الحديد الى المغناطيس . وما إن رفعت رأسي وما إن رأيتها حتى نسيت (بنطلوني) ونسيت كل شيء ... وعبرت « المجرى » وتقدمت نحوي ثم اخرجت منديلها الازرق الخفيف ، وجثت أمامي على ركبتها وبدأت تمسح الطين عن «بنطلوني» ... يا صلمتي ، يا كبدي . يا انغامي ، اكاد لا اصدّق ، هي تمسح لي الطين ...؟ وبمنديلها الحلو ...! اكاد اطير من شدة الفرح ، ولكن العادة جرت أن يطلى النحاس بالذهب وليس عكس ذلك ..! لم اضع لحظة واحدة من تلك اللحظات التي جثت فيها أمامي ، كان قد ملأ عطرها أنفي وانحدر عقلي في قارب انظارات مع مياه الشلال ، شلال شعرها الرائع فبلغ صدرها المريض ، كان عقدها يتذبذب بين قطبين ، كانت تتملكني رغبة شديدة الى النظر اليها والى أن أرى كل شيء ، كانت عيناها تلتمعان كأنهما لؤلؤتين ، ولما نهضت تحاصر نهداها في ثوبها من جديد حتى خشيت عليه أن يتمزق ، وشعرت

بأن آخر خيط من وعي ينقطع عندما سمعتها تقول :

- متأسفة سيد ، العفو .

- بل العفو منك سيدتي آنستي .

ولما ابتسمت انتابني شعور الغريق عندما يدركه الاسعاف وهو في آخر رمق .

واستمدت وبقيت في مكاني ساهماً أردد : « العفو سيدتي ، العفو سيدتي » . ولكني نسيت أن ابتسم .

ومر اكثر من شهرين على لقائنا . إن من الخير للظمآن أن يبقى على ظمأه من أن ينال من الماء جرعة واحدة لأن ذلك ادعى الى بقائه صابراً .

قضيت الايام التالية في التنزه في تلك الحديقة بالذات حتى اصبحت اعرف كل شجرة من اشجارها ، اقصدها في الصباح ولا اغادرها إلا مساءً ، انتظر مجيئها ، هذا في ايام الجمع أما في الايام الاخرى فلابد لي من المرور ولو مرة واحدة كل يوم ، ولكني لم اجدها ، كنت قد نسيت اصدقائي ، ونسيت همومي إلا هم العثور عليها ...

ولما انتهت السنة الدراسية ، وعلمت بأن هناك دورة ستقام في معسكر لخريجي المعاهد العالية ، فرحت كثيراً ، لأنها الوسيلة الوحيدة لي من التخلص من عذاب فقدانها ، وكنت أول المسجلين في الدورة ، اردت أن ابتعد وأبعد طيفها الذي لازمني اكثر من ملازمة ظلي ، فاذا كان ظلي معي في النهار فقط فان ذكرها كان يجلب لي الأرق ليلاً والقلق نهاراً ، حتى كانت آخر ليلة على سفري ، تذكرت فيها (السينما) و (الافلام) وقصدت سينما - غازي - على غير علم ، وعند الباب وجدت ضالتي . كانت تمسك بسماعة (التلفون الاوتوماتيك) والى جوارها كان

بقف هيثم وبيده كيس ذرة ، اردت ان اتقدم اليها واحييها لكن الدهشة شبكت ارجلي وعقدت لساني . ورأيتها تذهب الى شباك التذاكر فتبعتها .

انتظرتها الى ان صعدت السلم فصعدت خلفها ، واستطعت ان اكبح خجلي وان اتغلب على الخوف واوقف الرعشة السارية في اوصالي عندما تقدمت في الجهة التي كانت قد جلست فيها ، واخترت المقعد الذي لا يفصله عن مقعدها سوى مقعد واحد قد جلس ابنها فيه . ومرت اكثر من خمس دقائق وأنا احبس انفاسي كأني اتهيأ لالتقاط صورة شعاعيـــة ، ثم التفت الى هيثم

- شلونك هيثم ؟

والتفت هيثم الى أمه وسألها :

- ماما هذا منو ؟

ولم تجبه وظلت صامتة ، فأعاد السؤال مرتين وثلاث حتى انتزع منها اعترافاً بأني (عمه) ولو على سبيل المجاز

- عمو شأسمه ؟ والحف في السؤال ، فقالت :

- هذا الذي طيذت بنطلونه .

وخفق قلبي من شدة الفرح وارتطم في اعواد قفصه يحاول الافلات ، ما اسعدني ... انها تتذكرني وتذكر (بنطلوني) . إنها تعرفني ...

واردت أن اغتنم الفرصة فأكلمها ولكني لم اجد القول المناسب .

وعاود هيثم السؤال :

- شوكت ، ماما شوكت طيذت بنطلونه ؟ إي شأسمه ... شوكت ؟

فأجبته أنا :

- هذا هو إسمي (شوكَتْ) إسمي شوكت ووالدي فلان البوسطجي .

وبعد قليل مرت في وسط القاعة موجة من الضحك اثارها احد المشاهدين ، قام ببعض الحركات الهزلية استلفتت اليه الانظار ، فأراد هيثم أن يقف في كرسيه ليرى ، ولما وقف مالت لوحة الكرسي وكاد يسقط لولا أننا ادركناه في آخر لحظة ، التقت ايدينا على ظهره ، ووقعت يدي على يدها ومسكناه من تحت ابطه وانزلناه وهي تقول :

- كان انكسر راسك .

فأرد عليها :

- الله دفع ما كان .

ولما ابتسمت شعرت بالزهو والأمل بكسب ثقتها فيَّ ، تمنيت اشياء كثيرة .

وبدأ العرض ، كان (الفلم) قوياً بدليل ان القاعة كانت غاصة بالمشاهدين ، أما أنا فلم انتبه الى الفلم لأني كنت مشغولاً بفلم آخر .

واثناء العرض جاء (دليل القاعة) يحمل مصباحه اليدوي واشار على سيدتنا أن تفرغ محل الصبي اذا كانت لم تبتع له تذكرة ولما فعلت رجاها أن تنتقل الى محل الصبي لأن هناك امرأة تريد الجلوس فيه . لقد توهم في أنا عائلة واحدة ، عندما رآني مهتماً بأمرها توهم انها زوجتي.

وارتبكت هي وامرعت أنا في أخذ الصبي الى حجري ، وانتقلت هي الى الكرسي المجاور . لم يصبر هيثم في حجري اكثر من دقيقتين فأراد الانتقال الى حجر أمه ، ورفعته فكأني ارفع قلبي وأضعه في حجرها ، وفي تلك اللحظة مست خصلة من شعرها حنيقي ولمست بأطراف اصابعي زندها البض . لقد تمنيت اشياء كثيرة ، تمنيت أن

قبلها ، وعندما مست ساقي ساقها ، احسست أنها بدأت تتحاشاني ، صارت تميل بجسمها الى أمام كي تبعد كتفها عن كتفي . وقد تدخل اصبع الشيطان مرة اخرى فجعلها مصادفة حلوة عندما ظهر على الشاشة حيوان مخيف يقفز على الصياد فارتدت الى الوراء بصورة تلقائية وكنت أنا خلفها ، فانطبق بعض جسمها على بعض جسمي ، فلم اتمالك نفسي من أن امد يدي واطوقها ، ورأيت نفسي وأنا اجذبها نحوي بشدة ، ولم انتبه إلا على اصوات المشاهدين تجري همساً بينهم :

- شوف .. ها .. ها .. عيب ، إستحوا ...

ورأيتها تغادر القاعة مع ابنها ، أما أنا فلا ادري أي قوة شدتني الى الكرسي ومنعتني من القيام ، بماذا افسر هروبها ..! ولا ادري اذا كانت راضية عني أم انها ساخطة ، وهل كان سخطها نتيجة لسلوكي معها أم نتيجة لكلام الناس فقط ؟ من حقها ان تسخط فاني ندمت بسرعة على ما فعلت ، إلا أني وإن كنت قد تجاوزت حدود الأدب فانها كانت قد شجعتني على ذلك التجاوز .

وعلى الصرير حضرت لي « فكرة » البقاء في بغداد ، فان لدي الآن املاً كبيراً في الحصول عليها .

في صباح اليوم التالي ذهبت الى دائرة التسجيل واخبرتهم اني قد عدلت عن الاشتراك في الدورة ، خلقت لهم انواع الحجج .

التقيت بأصدقائي في ظهر ذلك اليوم واخبرتهم أني قد رفعت اسمي من القائمة فأبدوا اسفهم وطلبوا مني ان اقوم بتوديعهم على الأقل ...

في المســـاء كنت متردداً بين الذهاب الى دور السينما لأفتش عنها والذهاب الى المحطة لتوديع اصدقائي . قصدت المحطة واجتمعت بهم ،

ودارت بيننا احاديث كثيرة من الاسفار والمتعة التي يحصل المرء عليها في تغيير الجو الذي يعيش فيه ، ودوى في الجو صفير القطار ، وبدأت الحركة متثاقلاً ووقفت اتطلع في اوجه المسافرين ، وفي إحدى العربات رأيت وجه هيثم ،من وراء الزجاج ، كان جالساً في حضن رجل آخر وهرولت مع القطار حتى وازيت العربة ونظرت فيها ، كانت تجلس حوار ابنها ولما رأتني ابتسمت وبابتسامتها كأن جرحاً قديماً قد انفتق لم تكن ساخطة علي بل بالعكس كانت راضية كل الرضى ولوحت لي بمنديلها الازرق .

وكانت آخر جملة قلتها : الوداع ... أم هيثم . وداع لا رجاء بعده في اللقاء ...

يوم الجزائر

قال الخطيب الجالس :

لو تمثلنا الوطن العربي الكبير انساناً كاملاً لكانت فلسطين والأردن عيني هذا الانسان ، ولكان العراق صدره الواسع ودرعه الحصين ، ولكانت سوريا قلبه الخفاق و... و... وأقطار المغرب العربي ساعده الأيمن ، واستمر في خطبته لكنه لم ينهض ..!

اخبرتني والدتي - وأنا ادخل البيت - ان (زيداً) كان قد جاء يسأل عني ولما اخبرته بقرب موعد رجوعي اوصاها بأنه سينتظرني في المقهى الفلاني ، لكنه لم يفصح لها عن السبب . ووقفت أفكر في هذا الموعد الغريب ، ذلك لأن علاقتي بزيد لا تزيد عن تحية الطريق بالاضافة الى الفارق الاجتماعي بيني وبينه فهو التاجر الموفور الثراء وأنا الموظف البسيط ، الفقير الى ربي ، واسرعت الى المقهى لكني لم اجده ولم أره إلا بعد اسبوع من ذلك ولما سألته عن حاجته قال إنه قد سمع بأني صديق فلان احد موظفي دائرة السفر وحيث انه يرغب في تجديد جواز سفره فكان يود لو يكلفني به ، فقلت :

- بكل ممنونية ، إنما معاملتك اقصد (وين وصلت ؟) .

- أشكرك . لقد تمكنت من انجازها بدون حاجة ...

- الى أين إن شاء الله ..؟

- الى لبنان طبعاً ... للاصطياف

- ومتى سيكون سفركم ؟

- السبت أو الأحد

وافترقنا على هذا الحال ، وبعد ما يقرب من شهر وجدته جالساً في مقهى من مقاهي أبي نواس ، ولما سألته عن سبب تأخره في السفر قال إنه قد سافر فعلاً ووصل الى دمشق ثم رجع من هناك ولم يذهب الى لبنان . قلت : عسى أن يكون المانع خيراً ؟ . فقال : تفضل إجلس لأسرد عليك قصة طريفة في بابها .

كنت قد سافرت الى لبنان في الصيف الماضي ايضاً عن طريق سورية وحيث انها كانت زيارتي الأولى لهذا القطر الشقيق فاني عزمت أن

اقضي فيها بضعة أيام ازور فيها معالم دمشق التاريخيـــة ، كانت تلك الأمسيات جميلة على نهر بردى حيث تنعكس أضواء البنايات على صفحة الماء الرقراق فتبدو كأنها امرأة زنجية لبست حليها الذهبية ، أما أطياف النجوم فكانت تبدو كأنها اعشاب من نور .

وفي أحد الايام بينما كنت اتسكع في بعض الطرقات جاء ثلاثـــة رجال ، واحد في المقدمة والاثنان الآخران يسيران خلفه ، وكان هذا رجلاً ضخم الجثة طويل القامة مفتول العضل ، وكان قد اعتنى بشاربيه كثيراً حتى صارا كالسيف في غمده ، يضع على رأسه « غترة » بيضاء وعليها عقال رشيق وفي قدمه حذاء ضخم وبيده سلة متوسطة الحجم غنلىء الى ما يقرب من ربعها بأوراق مالية (ليرات) وقروش ، كان يهز الارض في مشيته وعندما تقدم نحوي قائلاً :

- أنت عربي ؟

- أجل ... عربي صميم ... !

- إذن ضع في السلة ما تجود به يدك

- بأية صفة ؟

- بصفة تبرع .

- لأي شيء ... من أجل من ؟

- من أجل انقاذ المغرب العربي، لا نستطيع أن نبوح لك بأكثر من هذا . انها من قبيل الاسرار الحربية .

وانزعجت كثيراً ولم ارتح للطريقة التي فاجأني بها ثم سألته :

- ما المبلغ الذي تراه مناسباً لي أن ادفعه ؟

وهنا صار استغرابي على أشده عندما قال لي :-

- بالنسبة لرجل متمكن مثلك ؟

- نعم

- لا يقل عن عشر ليرات (١)

فأسرعت أقول له :

- أنا آسف لأني لا استطيع أن ادفع مثل هذا المبلغ . ثم انه ليس معي اكثر من نصف ورقة الآن .

لقد ندمت على تراجعي أمامه بعد ذلك وتمنيت لو أني قد تبرعت له بأكثر مما طلب ، إذن لكنت قد اسعدته كثيراً . انصرف عني الرجل الضخم دون أن يتفوه بكلمة واسرع الرجلان الآخران خلفه ، كانا أقل منه ضخامة ولو أنهما ظهرا في صحة جيدة .

ورأيت أن اتبعهم واراقبهم عن كثب . دخلوا احد الأحياء ثم قصدوا احدى المقاهي الشعبية ، ورأيت الناس يجتمعون حولهم بسرعة مدهشة ، ثم رأيت التبرعات تنهال عليهم من كل جانب ، وازدحم المارة في الطريق كانت الاوراق من فئة العشر ليرات الى حد الخمسين ليرة تلقى من دون تكلف حتى أن بعض النسوة كن قد خلعن حليهن وارسلن بها في أيدي الصبية .

ورجعت الى (الفندق) وأنا مأخوذ بما رأيت ، ترى هل كان كل هؤلاء جادين في تبرعهم ، أم أن البعض منهم كان يمثل دور دلالي « سوق هرج » عندما يتزايدون فيما بينهم ليوقعوا المارة في الشرك ! فان كانوا جادين في ذلك فأية وطنية وأي ايمان يعمر قلوبهم ! واذا كانت هتافاتهم تمثيلاً ودموعهم دموع تماسيح فلماذا لا تؤاخذهم الحكومة على مايصنعون ؟

---

(١) الدينار العراقي يعادل عشر ليرات سورية تقريباً

وسافرت في صباح اليوم التالي الى لبنان من دون تأخير وقضيت الصيف كله هناك .

وفي هذه السنة أجبرت على البقاء في دمشق بضعة ايام ايضاً ، وصادف اني كنت جالساً في احدى مقاهيها عندما لاحظت أن (الصخب) الذي كان يسري في المقهى لا يتناسب مع عدد الجالسين فيه ، فلقد كانت الضجة عالية رغم قلة عدد الناس ، وانتبهت الى أن هذا الضجيج كان يحدثه المذياع . أن هناك احتفالاً يقام بمناسبة يوم الجزائر ، والأعظم من ذلك ان مكان الاحتفال يقع خلف المقهى تماماً على الشارع الآخر ، ولذلك فضلت الذهاب الى مكان الاحتفال لأرى بنفسي بدلاً من أن اسمع فقط ، كانت الجماهير مزدحمة على طول الطريق وقد نصبت المكبرات في جميع الاتجاهات ، كيف فاتني أن الاحظ ذلك اثناء مجيئي الى المقهى ..! ورغم الآلاف المؤلفة التي احتشدت فان الاحتفال كان على درجة من الروعة في التنظيم ، كانت كتل الشباب قد شبكت سواعدها لتجعل منها سياجاً منيعاً حول الساحة التي يجلس فيها المحتفلون .

سمح لي العاملان الواقفان في مدخل الساحة بالدخول بمجرد أن علما إنني قادم من العراق واستطعت أن اجد لي مكاناً خالياً فجلست ، وبمجرد أن نظرت الى صدر الساحة حيث منصة الخطابة منصوبة اخذني العجب لا من أجل الاحتفال أو ترتيبه وإنما من روعة المصادفة ، فقد كان ذلك الرجل الضخم ذو الشارب الغليظ المنحني - كأنه سيف - يجلس خلف المنصة ، ورغم أنه كان يبدو جالساً على كرسي أو مقعد فان ما بدا من جسمه كان اكثر من ثاني الصدر وحدقت اكثر في وجهه . كانت عيناه تفوران في محجريها فكأنهما بركانان عميقان وكان وجهه

بادي الشحوب فكأنه وجه تمثال مصنوع من البرونز ، إنه هو ذلك الرجل الذي تقدم نحوي قبل سنة تقريباً يطالبني أو يأمرني - بمعنى اوضح أن اتبرع له ومن دون أن يكلف نفسه عناءاً فيشرح لي بعض مهمته ، فاذا كان امثال هذا الرجل القوي البنية المفتول العضل يأتي لجمع التبرعات فمن ياترى يبقى للحرب ؟

كان الخطباء يتوالون على منصة الخطابة فيقرأون ما لديهم من قصائد أو مقالات ، والرجل في جلسته وأنا مجبر على الاصغاء ، غارق في بحران من الشك ، ثم رأت الصمت على الجميع ولما اطلق الرجل لفظة (إخواني...) بدا الناس وكأن على رؤوسهم الطير . واسرع رجلان فحملا المنصة من جانبيها وقرباها اليه بحيث بدا صدره كاملاً وابتدأ خطابه بأن حيا تلك الجماهير المحتشدة وحيا روحهم العالية ومنّاهم بالنصر القريب يوم يستعيد العرب مجدهم التليد . لكنه لم ينهض وظل جالساً في مقعده الذي كان يختفي خلف المنصة ، وعندها بدأت استفيق من غفلتي ، لا بد أن تكون عظمة هذا الرجل طاغية بحيث لا تقاس بها وقفة كل هذا الجمع المحتشد وانتظاره ، وحتى اذا افترضنا أنه كان زعيماً جليلاً أو ملكاً جباراً - وماذا يمكن لنا أن نفرضه اكثر من هذا ! - فانه من باب الكياسة والمجاملة أن ينهض وأن ينحني ...

وأجلت عيني حوله وفتشت عن صديقيه اللذين كانا يساعدانه في حملة التبرعات فلم اجد لهما أثراً .

واسترسل الرجل في خطابه الى أن قال : -

إن كل قرش تتبرعون به لنا يتحول الى رصاص يصوب الى صدر فرنسا الغاصبة . فرنسا المهزومة في الهند الصينية . فرنسا الباغية التي

تريد أن تسلب حقنا في الجزائر . فرنسا المرة وقد اشتعلت النار في ذيلها بعد أن صب الزيت عليه فصارت تدور وتدور تعض بذيلها .

وهنا ادركني الملل وغمغمت مع نفسي « لماذا لا تذهب أنت إذن وتشارك اخوانك المجاهدين .؟ » لكن الشخص الجالس جنبي نبّهني الى أن الرجل بدأ يصف المعركة وقال لي : « اسكت رجاءً نريد أن نستمع » .

قال الرجل : -

إنحدرنا نحن الثلاثة من سفح الجبل واتجه كل منا نحو هدفه ، فواحد نحو مستودعات الذخيرة لينسفها ، والآخر نحو مستودعات البنزين ليضرم النار فيها . أما أنا فلمنازلة الحراس والطائفم . كنت اخاطبها واقول :

« هلالية يا من على ساعدي تبانين جسورة كاسرة كأن (اخمصك) قالبه قبضتي المتحجرة ، هلاليـــة والهلال مضى دوره ، توجي سماء العرب المظلمة .

وهنا لم اتمالك نفسي فنهضت وسألته : - إذا كان خطابك لبندقيتك على هذا المنوال وأنك لا تخشى المنون فلماذا إذن لا تذهب اليهم ؟ وتبقى معهم طالما أنت تملك هذه السواعد والأرجل القوية . ...!

وبهت الحاضرون ونظروا إليّ نظرة ملؤها الازدراء بينما اجابني هو : « إنني وافد من عندهم ، لم يبق لي مكان بينهم » . واشار على الواقفين حوله أن يرفعوه « إرفعوني ليراني الناس » هتف فيهم .

ورفعوه فتعلقت عيني بأرجله وتملكتني الدهشة ماذا أرى ؟ جسماً بلا ارجل ! أين رجلاه اللتان كان يهز بهما الأرض من تحته ، كانتا قد قطعتا عند اسفل الفخذ . ومن مدة وجيزة ، كان قد ذهب بهما الى الجزائر بعد رؤيتي له في العام الماضي ليعود بدونهما قبل يومين فقط .

ثم قال والدمع يملأ عينيه : ـ لقد رماني الفرنسيون تحت عجلات قطارهم لكي يجعلوا من ميتتي ابشع ميتة ، كانوا قد توهموا أنني متُّ بينما كنت أحبو على يديّ فقط نحو أكمة قريبة من السكة ، ومن هناك التقطني المجاهدون الذين يربضون كالاسود في السفوح السوداء ، ومنها ارسلوني مع بعض القوافل ، وهكذا وصلت اليكم لأذكركم بالجزائر .

وما أن سكت حتى دوى التصفيق وعلت الهتافات بحياة الجزائر وفلسطين والعرب . ثم بدأت حملة التبرعات وكانت قد شكلت لجان لجمعها لشراء اسلحة للمجاهدين ، أما الرجل المقعد فقد وهب نفسه الوطن .

أما أنا (قال صديقي زيد) : أما أنا فقد نهضت مرة أخرى لا لأسأل وإنما لأتبرع وتبرعت بكل ما عندي مبقياً مبلغاً صغيراً يكفيني للرجوع ، كنت اريد أن اكفر ... اريد أن اكفر .

ونهضت من المقهى وأنا اقول له :

لقد احسنت صنعاً ...

السجارة

منشورة من مجموعتي القادمة « حلي » وهي قصص شعر منثور

اصبع سادس اعتراه اعوجاج
ذو مخاب وار وظفر من رماد
يستطيل
بازدياد
حسبها ثمار الدخان
بؤسها سوسة الاسنان
ليس إلا تمارين للبلع
تسود الرئتين
وتولد القشع
فعلبة سجائر
لو تدرك
ثقب في جيبك
كريهة في فمك
فان شئت أن تضمن وتطمئن
لا تدخن . . .

قصة رمزية

فتوى

محاولة لانشاء قصة قصيرة جداً من مجموعتي (حلي) القادمة

قالت الفتاة الشقراء البراقة كأنها المسجد

المبرومة كأنها مغزل، أن الابيض والاسود

عندي سواء ، قالت حبة حنطة

كان أخي الشعير

مائدة فاخرة للفقراء، واكلة نادرة للدواب

فدواب السباق

أحسن حظاً من بعض الفقراء

اما أختنا الذرة ، لها على الظمأ قدرة

زرعت بعيدة عن الماء ، تتغنى كل صباح ومساء

قائلة : لم تتوفر لي شروط البقاء

ورغم ذلك بقيت

أنا لا أؤمن أن الحياة

والبقــاء للاصلح

بل البقــاء للجميع

تنويه

هناك أمر مهم عن الكتاب ترددت كثيراً في كشفه ذلك اني لم أعرض على الاستاذ عبدالسلام ابراهيم غير القصتين الأوليتين لأني كنت أنوي نشرها وحدها . ولما رأيت أن الكتاب سيغـــدو قصيراً تافهاً أسرعت إلى « تبييض » مسودات ثلاثاً من قصصي الكثيرة - بدون مبالغة - والتي تضطجع على الرف وقد مر على كتابة بعضها اكثر من سبع سنين تنتظر دورها أو تحلم بالنشر حتى ان العنكبوت هو الآخر صار ينسج فوقها قصصاً أخرى ، فليست قصصي هذه أول ما كتبت أو هي أميز ما فيها لأنها كلها عزيزة علي لا أكاد أفضل واحدة على أخرى ولو اني اعترف بأن قسماً منها غير صالح للنشر وهو بهيئته (الخام) ذلك لأنها كتبت في أوقات مختلفة وظروف متباينة عندما كنت طالباً لا هم لي إلا هم (الدرجات) وبعدما أصبحت مدرساً يتوقف على سعة اطلاعي مستقبل وجبة كاملة من الشباب والانكى من ذلك اني لم اتوقع لها ان تحظى بعقالة القراء وتصافح ايديهم ولذا فانها تحررت وتخططت كما يحلو لها لا كما يريدون .

وأخيراً نود ان يعلم القراء بأن مجموعاتي القادمة ومواعيد هبوطها متوقف على مدى ما تصيبه مجموعتي الأولى من نجاح وعلى عمق تأثيرها في نفوسهم ، وفقنا الله في خدمة بعضنا .

أن الاسماء التي وضعتها في كتابي كلها مستعارة ولا علاقة لها بأحد

الفهرست

ص	
٣	المقدمة بقلم الاستاذ الأديب عبدالسلام ابراهيم ناجى
٤	الاهـــداء
٥	جنية ام حنتوش
١٨	حدث في الليلة الماضية
٤٧	خروف قسم الحيوان
٥١	معايدة
٦١	أم هيثم
٦٩	يوم الجزائر
٧٧	سجارة منشورة من مجموعتي القادمة (حلي)
٧٨	فتوى قصة قصيرة جداً من مجموعتي القادمة (حلي)
٧٩	تنويه
٨٠	فهرست الكتاب

وقعت بعض الاخطاء مما قد لا تخفى على القارىء الحبيب مثل :

ص	س	الخطأ	الصحيح
٧	٨	والذي	الذي
٧	٩	حرب	حرباً
٧	١٩	بشمه	بشه

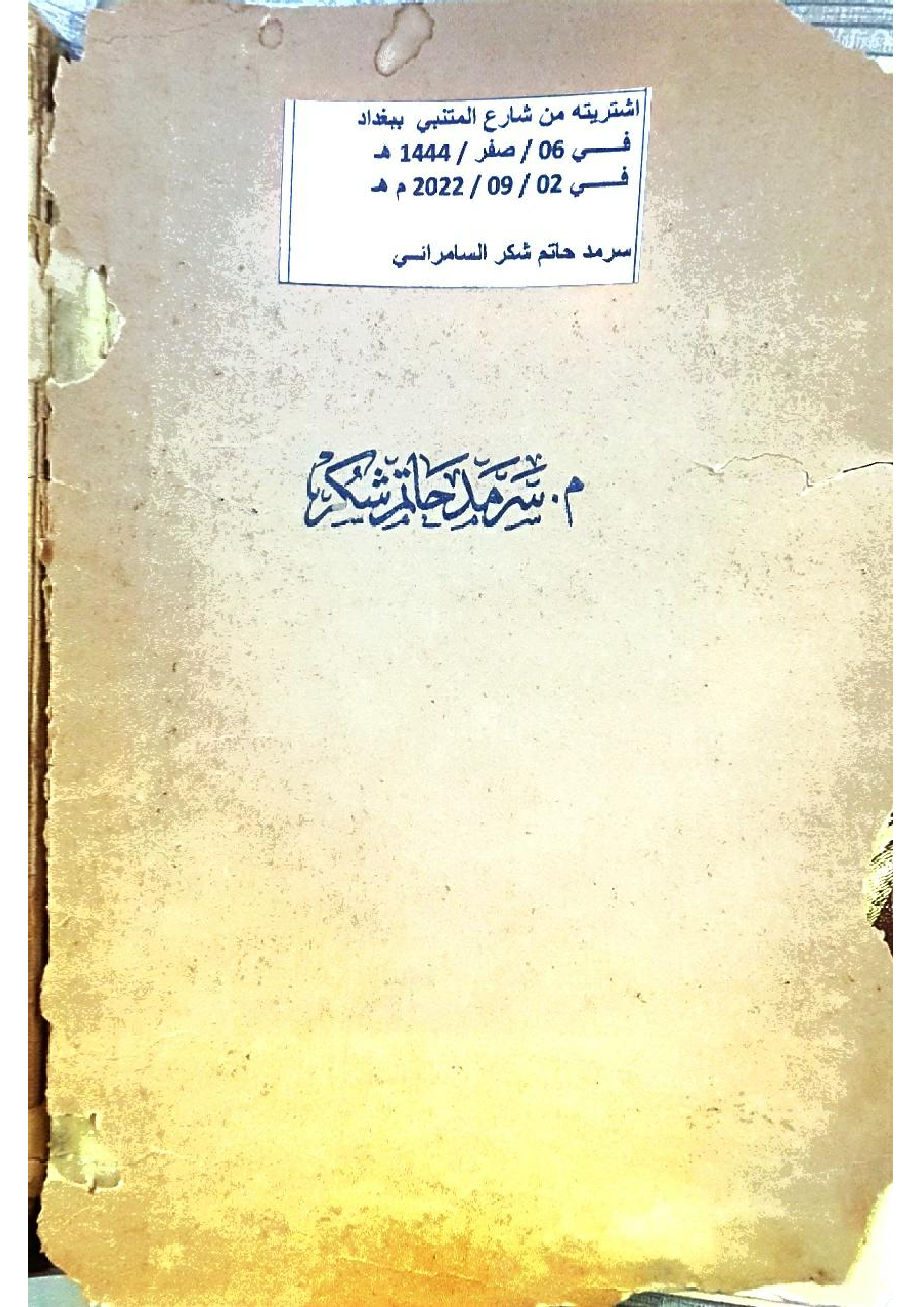
إلى آخره من الاخطاء البسيطة .

كتبي القادمة

١ — ولد من المطاط : رواية في ثلاثة فصول « جاهزة »

٢ — مؤامرة : مجموعة قصص

٣ — حلى : قصص شعرية منثورة « جاهزة »



اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 06 / صفر / 1444 هـ
فـــي 02 / 09 / 2022 م هـ
سرمد حاتم شكر السامرانـــي
م. سرمد حاتم شكر

متعهد التوزيع داخل العراق

مكتبة الأمل لصاحبها ـ توفيق محمود حلمي

عنوان المؤلف :

بغداد ـ كرادة الشرقية ـ البوجمعة ٦١٥/١

سعر النسخة ٩٠ فلس